

مسرحية

العصفور الأحدب

محمد الماغوط

طفولة برئية وإرهاب مسن

مأساة محمد الماغوط أنه ولد في غرفة مسدلة الستائر اسمها الشرق الأوسط. ومنذ مجموعته الأولى "حزن في ضوء القمر" وهو يحاول إيجاد بعض الكوى أو توسيع ما بين قضبان النوافذ ليرى العالم ويتنسم بعض الحرية. وذروة هذه المأساة هي في إصراره على تغيير هذا الواقع، وحيداً، لا يملك من أسلحة التغيير إلا الشعر. فبقدر ما تكون الكلمة في الحلم طريقاً إلى الحرية نجدها في الواقع طريقاً إلى السجن. ولأنها كانت دائماً إحدى أبرز ضحايا الاضطرابات السياسية في الوطن العربي، فقد كان هذا الشاعر يرتعد هلعاً إثر كل انقلاب مرَّ على الوطن، وفي أحدها خرجت أبحث عنه، كان في ضائقة قد تجره إلى السجن أو ما هو أمر منه، وساعدني إنتقاله إلى غرفة جديدة في إخفائه عن الأنظار، غرفة صغيرة ذات سقف واطئ حشرت حشراً في خاصرة أحد المباني بحيث كان على من يعبر عتبتها أن ينحني وكأنه يعبر بوابة ذلك الزمن.

سرير قديم، ملاءات صفراء، كنبة زرقاء طويلة سرعان ما هبط مقعدها، ستارة حمراء من مخلفات مسرح قديم. في هذا المناخ عاش محمد الماغوط أشهراً عديدة.

لنفترض أن الشرق العربي بقعة سوداء على خريطة الماضي والحاضر، فما يكون لون المستقبل؟ ولنبحث بعد ذلك عن مصير الشعر والشعراء من خلال ذلك الظلام الدامس . وإذا ما استعملنا ضوء الذاكرة وجدنا أن محمد الماغوط في وجه من الوجوه جزء من المستقبل، لذا كان لا بد من حمايته من غبار الحاضر. ألا يكون مستقبل شعرنا رماد لو تركنا الشعراء للسلطة؟ ولأن هذا الشاعر محترق بنيران الماضي والحاضر، لجأ إلى نيران المستقبل وهو جزء منها بحثاً عن وجود آخر وكينونة أخرى. بدت الأيام الأولى كاللعبة البطولية لنا نحن الاثنين. ولكن لما شحب لونه ومال إلى الاصفرار المرضي وبدأ مزاجه يحتد بدت لي خطورة اللعبة. كان همي الكبير أ، يتلاشى الأعصار دون أن يخنق غباره "النسر".

كنت أنقل له الطعام والصحف والزهور خفية. كنا نعتز بانتمائنا للحب والشعر كعالم بديل متعال على ما يحيط بنا. كان يقرأ مدفوعاً برغبة جنونية. وكنت أركض في البرد القارس والشمس المحرقة لأشبع له هذه الرغبة، فلا ألبث أن أرى أكثر الكتب أهمية وأغلاها ثمناً ممزقة أو مبعثرة فوق الأرض مبقعة بالقهوة حيث ألتقطها وأغسلها ثم أرصفها على حافة النافذة حتى تجف. كان يشعل نيرانه الخاصة في روائع أدبية كانت الهتافات في الخارج تأخذ من بعيد شكلاً معادياً.

وقبل ذلك كان محمد الماغوط غريباً ووحيداً في بيروت. وعندما قدمه أدونيس في أحد اجتماعات مجلة "شعر" المكتظة بالوافدين، وقرأ له بعض نتاجه الجديد الغريب بصوت رخيم دون أن يعلن عن اسمه، وترك المستمعين يتخبطون (بودلير؟.. رامبو؟..) لكن ادونيس لم يلبث أ، أشار إلى شاب مجهول، غير أنيق، أشعث الشعر وقال: "هو الشاعر..." تمتمات خفيضة. أما هو، وكنت أراقبه بصمت ، فقد ارتبك واشتد لمعان عينيه. بلغة هذه التفاصيل وفي هذا الضوء الشخصي نقرأ غربة محمد الماغوط. ومع الأيام لم يخرج من عزلته بل غير موقعها من عزلة الغريب إلى عزلة الرافض.

من يدرس حياة هذا الشاعر يرى أن فترات الخصب عنده تتواقت مع الأزمات. "فالعصفور الحدب" وأعمال أخرى ما زالت مخبأة في الدراج، وقسماً كبيراً من "الفرح ليس مهنتي" جاءت نتيجة انفجار بشري داخلي عنيف حدث في أواخر ذلك الشتاء في هذه الحميا أخذ يرى علائق الأشياء بعضها بالبعض الآخر. وإن هذه الارتباطات قد تنقلب إلى علائق خطرة فيما إذا تضخمت من طرف واحد تاركة الطرف الآخر يرتجف دون حول أو قوة. ومحمد الماغوط يبحث عن الحماية منذ صغره. لكن كلما التجأ إلى ركن رآه خانقاً كالسجن أو واهياً كالورق. أراد أ، يدخل كون الشعر حيث لا سلطة إلا للمتفوقين. والبيئة المضطربة المتقلبة التي عاش في مناخها، كانت تقف كالسوط في وجهه لترده باستمرار إلى الداخل فيعتصم بمخيلته. في تلك المؤامرة الكبيرة التي حاكتها البيئة ضده عظمت براءته وثوي صفاؤه. وقد أعطته تلك الاقامة السرية فرصة كبيرة للتأمل الذهني. وتحت تلك العدسات كان الوجود الانساني يدخل سلسلة من التحولات. سكب أحماضه المأساوية على الفوضى البشرية، فبدا الوجود الواحد يحمل في أعماقه وجودات لا حصر لها. وهذا ما دفعه لأن يطرق ألواناً أخرى غير الشعر.

في الشعر يمتطي حلمه ويغيب. ليس بمعنى التخلي الشعوري عن واقعه، وإنما بمعنى الطموح الملح لخلق وجود بديل عنه. وجود آخر يهيم معه في سفره. غرفة الشعر غرفة لينة، واسعة، فضفاضة. تنتقل كلما أشار إليها الشاعر. أما الآن فلا مفر له وهو داخل تلك الجدران المتسخة من مواجهة الواقع. لذا انعكست أوضاعه على أبطال "العصفور الأحدب" سجنهم، خلقهم مشوهين وبأمزجة حادة، متقلبة وشائكة. المسافة في المسرحية لا تنقلهم نحو أحلامهم أ، نحو الأفضل وإنما تحاصرهم. وعندما امتلكوا الحرية تغيرت مرتفعاتهم الانسانية. دخلوا في علائق جديدة. شكلوا مرة أخرى لعبة الحاكم والمحكوم التي ما استطاعوا أن يذهبوا خارج حدودها بالرغم من الحريات التي امتلكوها فيما بعد. في "العصفور الحدب" لم يلتق الماغوط بجمهوره بمعنى المواجهة. التقى به في حالة الجذب والقيادة. ولأن الزمن بينه وبين الآخرين كان شاسعاً انكرت كعمل مسرحي وسميت قصيدة. في الحقيقة كان في "العصفور الأحدب" قائداً يسير خلف جيش مهترئ، منكوب أرمد. لذا ارتد القائد في "المهرج" وفضح تلك المخازي.

يعتبر محمد الماغوط من أبرز الثوار الذين حرروا الشعر من عبودية الشكل. دخل ساحة العراك حاملاً في مخيلته ودفاتره الأنيقة بوادر قصيدة كشكل مبتكر وجديد وحركة رافدة لحركة الشعر الحديث. كانت الرياح تهب حارة في ساحة الصراع، والصحف غارقة بدموع الباكين على مصير الشعر حين نشر قلوعه البيضاء الخفاقة فوق أعلى الصواري. وقد لعبت بدائيته دوراً هاماً في خلق هذا النوع من الشعر، إذ أن موهبته التي لعبت دورها بأصالة وحرية كانت في منجاة من حضانة التراث وزجره التربوي. وهكذا نجت عفويته من التحجر والجمود. وكان ذلك فضيلة من الفضائل النادرة في هذه العصر.

سنية صالح

العصفور الأحدب 1

(قفص بشري مجهول في صحراء مجهولة. سماء شاحبة وغيوم رمادية. ساقية موشكة على الجفاف. أغطية خلقة ، صحون، ملاعق، ضمادات ملطخة بالدم. دورة مياه، مغسلة، سجناء يتكئون على وسائدهم القذرة بإعياء. كهل ، قزم، صانع أحذية عازب مصاب بالشذوذ الجنسي، وعدد آخر من السجناء المجهولين، معصبي الرؤوس والأطراف. بعضهم يقعي ، وبعضهم يمشي، وبعضهم الآخر يغلي ضماداته وثيابه وسط بحيرة من الوحل.)

صوت : (خافت وحزين يأتي من النافذة الصغيرة العالية.)
تحت أقواس النصر، رفعوا وشاحي كذيل النعجة
أمامَ لهب الشموع، فتَّشوا نهديّ كالبضائع
أخرجوا العروق
ونثروا بذور الحليب
ليست الشرطةُ أو رجال التأميم
ولكنها العصافير المغردة والعشاقُ المجهولون
لم أكن أحمل لهم لوماً أو فراقاً
ولكنني كنت أحمل لهم رائحة الشجر وبكاء الأساطيل.
(صمت)
يا إخوتي.
أنتم هنا، لأن الآخرين هناك
أنتم هناك، لأن أطفالكمٍ يأكلون الفراشات النيئة
ويضربون البراعم بحدِّ المساطر .
أنتم هنا،
لأن الله لا يجلسُ تحت الياسمين وفي ثقوب القيثارات
ولكن في ثقوب المدافع وعلى جراح السبايا
(صمت)
القزم: ما هذا ؟
صانع الأحذية: عاصفةٌ أو امرأة
الكهل: أياً كانت هويتُها ، عاصفة أو امرأةٌ أو سحابةٌ،
لقد بثَّتْ همومها ومضت
القزم: وبقيت تلك الساقيةُ الخرساء .
صانع الأحذية: إنها تزعجني، تسير دون جلبةٍ كالأفعى.
الكهل: بل كالحرير.
صانع الأحذية: (بغضب) وهل تعرفها؟
الكهل: كابنتي.

مجهول: وأنا أعرفها أيضاً. منذ عام ونصف وهي تحرمنا النوم والسهر. (بعصبية) لتتزوج نهراً وينتهي الأمر.
الكهل: إنها عانس.
العازب: أنا أتزوجها. أليس لها أثداء؟
الكهل: بلى. أثداء صغيرة كزهرة البيلسان، ولكنها سقطتْ منذ أمدٍ بعيد. كلُّ غاباتِ العالم ترضع منها.
العازب: ألا تتهيَّج؟
الكهل: طبعاً، طبعاً تتهيج.
القزم: يا إلهي. يتكلم كأنه زوجها، كأنه يجري معها في صحراء واحدة.
الكهل: قلتُ تتهيج. ما من شيء في العالم إلا ويتهيج.
حتى الشعوب أو الملاعق، يمكن أن تتهيج.
العازب: فعلاً إن أصابعي الآن في حالةِ سحاق .
صانع الأحذية: سأطمرها بالتراب ذات يوم.
الكهل: ستبكي أنهارٌ كثيرةٌ في العالم.
صانع الأحذية: لا أنهار في العالم.
القزم: (غاضباً وواقفاً على قدميه) لا أنهار في العالم! طبعاً ستقول ذلك طالما لم ترَ في حياتك كلها سوى المياه القذرة في الدلاء. هل تعتقد أن ما يجري في أنابيبكم ودوارق مستشفياتكم هو ماء؟ أبداً. إنه حثالة، بل قمامة الينابيع في العالم. (يبصق) لقد شربتُ ذات يوم من صنبور، كأنني شربت من وريدٍ مقطوع.
الحارس: (يدخل فجأة ويصرخ) من يشتمُ الدولة؟
القزم: لا أحد. إننا نتحدث عن الينابيع.
(الحارس يخرج ويترك الباب مفتوحاً وهو يلوح بسوطه. تصفر على أثر ذلك ريح حزينة تحرك أسمال الأشباح ولحاهم المترامية على الركب والصدور الممزقة).
الكهل: (يتنهد) إن لها رائحة الغابات.
صانع الأحذية: بل رائحة الشمس والضحايا.
العازب: بل رائحة الجزر والنهود التي تقطر ماء في الشباك.
القزم: يا إلهي ما هي؟
الكهل: الريح.
القزم: لتذهبْ إلى الجحيم أنت وريحك هذه. إنها تلسعُني كالسوط!
الكهل: وماله السوط؟ إنني أحبُّه كإبني.
القزم: (غاضباً وواقفاً مرة أخرى على قدميه) لقد عاد إلى تخريفه، عاد مطهماً حتى الأذنين بورود الدَّجل وغار الأباطيل. والله وحده يعلمُ ماذا يعني وماذا يقول.
الكهل: أقول أحبُّه كإبني.
مجهول: شيء غريب.
الكهل: وما الغريب في الأمر؟ بعضهم يحبُّ النجوم، وبعضهم يحبُّ الخوخ، وأنا أحبُّ السياط.
القزم: إنه يكذب . إنه يكذب. عندما أتوا به إلى هنا للمرة الأولى مغسولاً كشجرة بالدم، باكياً حزيناً ولسانه منبثقٌ من فمِهِ كاللفافة، بماذا كان يفكر ؟ بماذا؟
الجميع: بالدمار.
الكهل: بل بالسُّحُبِ الرائعة والأطفال الموتى بين الزهور.
القزم: إنك تكذب.
صانع الأحذية: ربما كان صحيحاً . أنا رأيتُ سحابة ذات يوم.

القزم: ربما كانت سحابة غبار. في مدينة قذر يرشّونها بالماء، كالخبز، صباح مساء. ولربما كان يفكر هو أيضاً بالسُّحُبِ الرائعة. لأن السحبَ فعلاً رائعةٌ في القرى. ولكن ليس هنا، ليس في هذا القنّ البشري، في هذا المسلخ المحاصر بالدم والرياح عندما ضربوني للمرة الأولى، أحسَسْتُ بالنار تقدح من عيني، أحسَسْتُ بغيومٍ من نار تقف مستقيمة على أرجلها الخلفية، وتقرع نوافذي كالمطر، وأطفالي عراة، عراةٌ بين الوحول لا بين الأزهار ـ أتسمعون، والبخار يتصاعدُ من أنوفهم كما يتصاعدُ من كلاب الزحافات.

الحارس: (يدخل فجأة ويصرخ مرة أخرى) من يشتمُ الدولة؟

صانع الأحذية: لا أحد.

القزم: وماذا في الأمر؟ هو يتحدَّثُ عن الأزهار وأنا أتحدث عن الكلاب، أو بالأحرى عن الأزهار والكلاب.

الكهل: وعن لهاث الأطفال.

القزم: نعم وعن لهاث الأطفال. هل يعنيك هذا الأمر؟

الحارس: نعم يعنيني.

القزم: (ساخراً) حسناً. لقد جرَّدتموني من قداحتي ولفائفي ، ولكن لا عليكم تجريدي من أطفالي. (صارخاً) لأنهم هنا، تحت الضلوع، تحت الضلوع أيها الحارسُ العظيم. لا يمكنكم ذلك، لا يمكنكم أبداً!

الحارس: بل يمكننا

القزم: يمكنكم. يمكنكم. ثم العنة عليك. خذهم إنهم ليسوا أكثر من قطعٍ ل معنى لها من اللحم.

الكهل: إن قلبك من حجر.

القزم: ولماذا لا يكون من صوان أيضاً، طالما لسانُهُ ازميلٌ وسيف؟

العازب: سيفٌ ولحم. فكرة رائعة!

الحارس: ماهي؟

العازب: الفكرة. السيف واللحم أيها السيِّدُ العظيم. تصوَّر سهلاً لا حدود له من الأطفال الموتى والمشوهين، وأطواقهم الزرقاء والحمراء تقطرُ دماً على التراب.

الحارس: دماً أحمرَ على التراب.

العازب: أو، باختصار، تصوروا كل أطفال الشرق مقطعي الأوصال والأنوف والأصابع، معبئين في صناديق.

الحارس: أو في سفنٍ صغيرة.

العازب: ترفرف عليها أعلامٌ صغيرة.

الحارس: والدمُ يقطرُ على الأمواج.

العازب: ثم تحملهم عاصفةٌ هوجاء إلى كل أمهاتِ العالم.

الحارس: والدمُ يقطر على الغابات.

العازب: دمٌ أحمرُ على الغابات.

القزم: (بانفعال شديد) ما رأيك أيها الحارس العظيم؟ بل ما رأي أسنانك الجاحظة أيها الحملُ الرضيعُ بحشائش من أهدابِ الأطفال؟ بل بوسادةٍ من أصابعهم وعيونهم وشاماتِ أنوفهم؟

الحارس: فكرة رائعة. سأنام كأهلِ الكهف.

القزم: إنني أراهن على أنه لا تجري في دمك كرةٌ واحدة بيضاء.

الحارس: (يصفع القزم بالسوط على وجهه ويصرخ) اسمعوا من يتكلم! الرجل الذي ضاجع عنزة بائسة في أدق فترة من فترات النضال يتكلم الآن عن الشفقةِ والرحمة. ثم ألا تسمعون معي جَدْياً بائساً يبكي وراء الأسوار؟

القزم: (يحك خده الملتهب) آه إنني قادرٌ على أكله بحذائه.

الكهل: أيها الإخوان، أيها الاخوان، دعونا من الدم والماعز والخدود الملتهبة. ولنتصورْ نوافير من الأطفالِ، تتدفَّقُ في أدغالٍ من الزّهر والأطفال، حيث الحلماتُ الصغيرة تتدلّى أمامهم كأقراط الموز.
الحارس: هراء. فكرة تستحقُّ الجلد حتى الموت. شجر وأطفال . يا للمهزلة.
الكهل: (متابعاً حديثه) تصوَّروا فقط، ورداً وأطفالاً وحلمات.
مجهول: تحت مطرٍ حزين.
العازب: أو مطرٍ من السيوف.
صانع الأحذية: يقطعُ جميع الألسنة وفي مقدمتها لسانك.
مجهول: ولساني أنا أيضاً.
صانع الأحذية: آه، كم هي أقدام الأطفال صغيرةٌ وبائسة، إنها داماً مجمَّدة كأوراق الخريف.
القزم: بدأ يتحدثُ كشاعر.
صانع الأحذية: بل كحذاء. لقد لمست من السيقان الرفيعة والأقدام المجلدة في الزمهرير، أكثر مما لمستم جميعكم من سنابل.
العازب: أقدام ناعمة وملساء؟
صانع الأحذية: كالماء تماماً.
الكهل: (ينهض فجأة على ركبتيه) آه، لقد ذكرتموني بالماء. شيءٌ رائع أن يتذكر الإنسان شيئاً نافعاً، شيئاً صامتاً ومهذباً في هذا العصر اللعين. إنني ظمآن لدرجةِ الموت. (يشرب من المغسلة ويقف متنهداً أمام النافذة).
صانع الأحذية: إنه يصلي.
مجهول: أو يبكي.
الكهل: (يهتف بغبطة) إنه قادمٌ . قادمٌ كالريح.
القزم: من هو؟ الحارس؟ إنه لم يختفِ بعد؟
الكهل: لا، طائر الخريف.
صانع الأحذية: ولكننا في الصيف، أيها المسيحُ الحافي القدمين.
الكهل: أعرفُ ذلك، ولكن هذا الطائر في مهمة.
مجهول: سياسية؟
الكهل: لا لا. إنه يحمل بين قوادمه رسالة . رسالة مكتوبة بالمطر إلى كل حقول العالم، ينبئها بأن الخريف قادم.
القزم: ولكنني لا أرى شيئاً. هل جننت؟
الكهل: بلى. إنه هناك.
مجهول: هذا ليس طائراً. إنها نقطة صفراء بعيدة.
العازب: قد تكون فراشة.
الكهل: أو دمعة مكسوّة بالريش.
صانع الأحذية: ولكنها تطير. والدموعُ لا تطير.
الكهل: بلى. إنها تطير، بل تتفجّرُ وتطيرُ إذا كانت الأهدابُ طويلةً وغاضبة.
مجهول: (بثقة) هذا الشيء ليس دمعةً أو فراشة. إنها رصاصة.
القزم: هل أنت واثقٌ من ذلك؟
مجهول: كثقتي بأننا أشدّ شقاء من الحيوانات الفقرية.
القزم: (مندفعاً بلهفة نحو النافذة) إذاً هي لي. لي أنا.
مجهول: بل لجبيني أنا.
صانع الأحذية: بل لجبيني أنا.

(يندفع الجميع نحو النافذة ويتسلقون قضبانها بشكل وحشي، وكل منهم يريد أن يبرز جبينه من بين القضبان قبل الآخر).
الكهل: لقد أفزعتموه أيها الوحوش. لقد ذهب طائري الجميل وولّى. وداعاً يا طائري الجميل، وداعاً.
القزم: يا إلهي، إنها حقاً لزريبة مجانين. لقد سخر منا ذلك الكهل اللعين وانتهى الأمر. إنه طائر ما. ذهب وولى.
الكهل: ويحك. أتقول عن ذلك الطائر الجميل، ذي الجناحين الصغيرين، والمنقار الحاملِ كلّ همومِ العالم: طار ما؟
القزم: (صارخاً) بل نصف طائرٍ ما! إنه ليس أكثر من كتلةٍ بذيئه من اللحم والريش، عبرتْ حزينةً أو ضاحكة وانتهى الأمر، فهل تريدُ أن تهشّم رأسي بحجر من أجلها؟ أنا إنسان. انظر إلى بطاقتي الشخصية، وإذا كنت لا تصدّق فإنني أؤكد لك بأن الكثيرين شاهدوني أهبط من الحافلة وأسير في الشارع ذات يوم، ولم يقولوا عني حتى: إنسان ما. لقد ضربوني على الكتفين وشدّوا شاربيّ كالعشب، ولم يقولوا عني حتى : إنسان ما. ثم تريد بعد ذلك أن تشركني في مناحةٍ من أجل طائر حقير مرَّ أمام عشرة رجالٍ محطمين ومنبوذين في أقصى الصحاري شناعةً وذعراً ولا أحد لهم في العالم كله، دون أ يلتفتَ إليهم، أو يقول لهم حتى ولو مرحباً أيتها الطيور البرية، أيها الرفاق القدامى؟
الكهل: بلى بلى. لقد حيّانا بطرف ذيله كأي طائر محترم، وهذا أكثر ما يستطيع أن يفعله طائرٌ صغيرٌ في هذا العصر. ثم ألم تلحظْ كم كان مقهوراً وبائساً وهزيلاً؟
العازب: لقد كان هزيلاً وشاحباً بالفعل، وكأنه يمارسُ عادةً سريةً بين الغيوم. اصغوا إليّ أيها الاخوان، اصغوا إليّ. ما من أحدٍ منا، بل ما من أحد في العالم، يستطيع أن يعرف بماذا كان يفكر هذا الطائر آنذاك. قد تعرف بماذا يفكر الملك أو الصعلوك. العالمُ المكبُّ تحت الأضواء، والقادة الكبُّ،ن تحت السيوف المشهورة. ولكن لا يمكنك أبداً أن تدرك لماذا يحطُّ هذا العصفور هنا ولا يحطُّ هناك. لماذا يمرحُ ويغرِّدُ في هذه الغابة وينوح وينشج في غابة أخرى. ثم أنت أيها القزم، أو أي واحد منا، إذا ما كُسِرَتْ أصبعُهُ أو ذراعُهُ في حربٍ أو شجار، سيسارع فوراً إلى تركيب ساق خشبية أو اصبعٍ معدنية بدلاً عنها، أما ذلك الطائر المسكين فإذا ما نزعتَ منه ريشةً واحدةً فقط، فإنه سيترنح ويهوي مفتوحَ الجناحين إلى الأبد.
القزم: ليهوِ إلى الجحيم.
الكهل: إنك جلاد.
القزم: جلاد أو قسيس، إنني لا شيء ، رجل عادي، لا شيء يهمُني أكثر مما يجب، بل لا شيء يهمني على الاطلاق. لا الزنبقة الجميلة ولا الرأس المشطور إلى قسمين. وبعد الافراج عني، سأحيا حياتي كما هي تماماً، أفرح في الأعراس وأبكي في المآتم. متناولاً طعامي مع عائلتي، ومستلقياً بعد ذلك فوق زوجتي أو فراشي كالقتيل. إن اصبعاً واحدةً لا يمكنها أيها الكهل الأحمق أن توقف اصبعين، في هذا الحشد الهائل من الرصاص. وعليها أن تنحني أو تقصف، أو تتوارى في قفازٍ ما.
الكهل: وكلن الزناد لا يطلقه الزناد.
القزم: لا يهمني هذا أيضاً. وإنما الذي يهمني هو اصبعي شخصياً، ولن أستعملها إلا لنكْش أنفي.
الكهل: استعملْها في نكشِ قبرك إذا شئت. إنك تتكلم كشخصٍ عادي، عادي جداً، يسير في الشارع على قدميه لا على رأسه ولا يلفتُ النظر على الاطلاق. ولكن يجبُ أن تعلم أن هناك أشخاصاً يسيرون في الشارع أيضاً على أقدامهم لا على رؤوسهم، ولكنهم يبدون لك وكأنهم الوحيدون في العالم الذين يفعلون ذلك. بالطبع إن إصبعاً واحدةً لا يمكنها إيقاف ذبابة، إذا كان ما يجري في عروقها دمُ ذباب لا دمُ نسور. أعطني خمسَ أصابع مطبقة بإحكام على شيء ما بإيمان لأغير لك وجه الأرض كما تغيِّر قميصك القذر هذا.
القزم: إنك لمجنون حتماً.

الكهل: بل أنت المجنون البائس والغبيّ، لدرجة تجعل حتى الكلاب السوقية تشيح بناظريها عنك، حتى ولو كنت في أبهى حللك. (صارخاً) كم هو عددُ الأصابعِ التي غيَّرَتْ وجه الأرض منذ دورانها للآن كما تعتقد؟ إنني أؤكد لك لو قطعتها ووضعتها جميعاً في هذا الطشت لما ملأت نصفه. هل تعتقد أنه كان لبونابرت ستّ أصابع في يمناه ولاتيلا أو هتلر خمسون في يسراه؟ أبداً. لقد كانت أيادي عادية جداً، استعملت في نَكْشِ الأنف والشجار ورَبْطِ سيور الأحذية، استُعْمِلَتْ أيضاً في قذْف اللفائفِ عند المنعطفات وقذف الأزهار للغواني.

مجهول: وقذفِ القنابل على الشعوب.

الكهل: استعملت في أشياء كثيرة لو أحصيت لك واحداً بالمائة منها لأصبح شعرك بلون الكِلْس.

القزم: لا يهمني إن أصبح شعري بلون الكلس أو بلون الاسمنت، طالما هو شعري وملتصقٌ كعادته برأسي. ثم لا يعنيني أبداً ما قلته وما ستقوله. وهؤلاء الأشخاص لو لم تحطْهم بتلك الهالة العجيبة من الاكبار والتملّق لما ظننتهم أكثرَ من بائعي جَزَرٍ في مدنهم. ومع ذلك سأعتبر نفسي وكأن بي هوساً في هذه الشؤون وأسألك ماذا فعل بونابرت هذا؟

الطالب: حرق موسكو.

الكهل: ولكن كل رمادها لم يكن كافياً لطمر ما تبقى من جيشه وطبوله وجرحاه.

الطالب: لقد ترك أعلامه على أنقاضِ الكنائسِ والتماثيل.

الكهل: وترك دمه وصبانه على الثلوج.

مجهول: ولكنه أحرقها.

القزم: ليذهبْ إلى جهنم. وهتلر هذا ماذا فعل أيضاً، هيا تضاربا بالصحون والطناجر من أجله.

الكهل: لقد هزّ العالم كالغصن.

الطالب: وهزته خليلته كالطفل، وهو راقدٌ في حجرها ينتحب. عظام وشوارب يغطيها الغبار في قاع الرايخ. (صارخاً) في قاع الرايخ. ألا تفهمون ماذا تعني هذه الكلمات؟ هناك حيث تُخْزَنُ المؤن، وتتناكحُ الخادمات بين السلاطة الملطخة بالدم والخرائط المقضومة كالأظافر.

الكهل: هذا ليس مهماً. فالنتائج إما حسنة وإما سيئة. ولكن المهم أنهم قالوا شيئاً وفعلوا شيئاً.

مجهول: ولكنهم ماتوا

الكهل: وما الغرابةُ في الأمر؟ إن الله نفسه يموتُ في بعض الأحيان.

القزم: لا. لا أريد أبداً أ، ينحرف الحديث إلى هذا المنزلق الخطير ، حيث الوقوفُ على رأي أو نتيجةٍ كالوقوف على رأس خنجر. إن الله موجود طالما لم أسِرْ في جنازته للآن. ولذلك أعود لأؤكد، لك وللجميع، بأنني لن أستعمل اصبعي إلا لنكش أنفي، طالما أن الملايين لا يفعلون شيئاً خلاف ذلك. هيا بلِّغْ طائرك الجميل ذلك قبل أن يعود مكشراً كالذئب ليغرس مخالبه في اللحمة الحية لهذه الصخور (مشيراً إلى رفاقه). ثم إنني أكاد أفقد عقلي. إنك تجرُّنا بقدرة قادر من عالم الطيور والأزهار إلى عالم الصراخ والدم، ومن عالم الصراخ والدم إلى عالم الفتيات والغواني، ومن أجل ماذا؟ من أجل طائر ما. ليذهبْ طائركُ إلى الجحيم. هل نأكل فطائرَ من الريش في أيام المجاعات الكاسحة؟ هل نسمع زقزقةً وتغريداً أيام الخراب والهزائم؟ هيا أطلق رصاصة على غصن ما في حديقة ما، لتجد طيورك الأليفة وقد كشَّرتْ كالذئاب، تضرب عيون بعضها بالمناقير مختبئة وهي تنزف في المجاري وسراويل المارة.

الكهل: اسمع. إذا كنت تعتقد أن صراخك هذا يجعل منك رجلاً ما، فأنت مخطئ. إنك تشبه في هذه الناحية امرأةً شمطاء تحاولُ استعارة أنوثتها بنضج ثدييها، حيث أقل مداعبة ستكشفها على حقيقتها وترغمها على النحيب والعويل في فراشها حتى تلفظ أنفاسها. اسمع. عندما اندلعتْ الحرب ماذا كنت تفعل؟ بل ماذا فعلتم جميعكم؟

القزم: ضحكتْ.

مجهول: بكيت.

صانع الأحذية: اختبأت في المطبخ والمخرزُ بيدي ولم أخرج حتى بدأت محاكمات نورمبيرغ.
الكهل: حسناً. أما الطيورُ فعلى الأقل كانت تصرخ وتتوسل على ذرى أغصانها، لا في الأقبية والمطابخ حيث تختبئُ القطط والأطفال.
القزم: حسناً. لقد كانت تصرخ وتتوسلُ من الفزع على كل حال.
الكهل: طبعاً من الفزع، طالما أ، الفزعَ أصبح شيئاً مألوفاً كالزكام. ولكن البطولة أنها أعلنت موقفها لا زقزقةً وتغريداً بل صراخاً وعويلاً، لا في المجاري وسراويل المارة على ذرى الأغصان، أغصانها ذاتها. ولذلك يجب أن نحترمَها، يجب أن نحترمها حتى عندما تهاجرُ تاركةً صغارها بين الأقدام وسلاسلِ الدبابات. إن المرءَ ينسى كل شيء في تلك اللحظات.
مجهول: إنه رجلٌ خطر ويمهِّدُ للنسيان.
القزم: هذا هو بالضبط ما يدور في رأسي كالمرحة، أو بالأحرى هذا ما أريدُ الوصول إليه أيها الكهل المجهول. إنك تمهِّدُ للنسيان، ببساطة وبراعة، كما تمهد ببضع كلمات ملفقةٍ لاغراء قرويةٍ تحمل جرَّتها.
الكهل: أنتم مخطئون. إنني لن أنسى ما حييت شيئاً عزيزاً عليّ ولو قتلت نفسي.
القزم: إنك بحاجة إلى الحرية لتنفُضَ كل شيء
غداً عندما تهرول في الساحة الرمادية
هابطاً الدرجَ دون غبارٍ خلف القدمين
لأن الغبار راقدٌ في الأطعمة والجراح ـ
ممتلئاً كالعشّ بزرق النجومِ ودمع الرفاق القدامى
رافعاً يديك لجلاديك
مستميحاً الأعذار
مفتّشاً عنها على ضوءِ اللفائف والمصابيح
كي تقبل السوطَ الفاني وتلحسَهُ بشاربيك كالهرّ
مع أنك واثقٌ تمام الثقة
بأنه مرتوٍ حتى آخر ذرةٍ فيه
بدمك ودمِ الرفاق القدامى
ستنسانا حينذاك كحلم
ستنسى الساقية والرياح
الملاعق الصدئة والأغطية الممزوجة خيطاً خيطاً
بدمِ القروح وماءِ الأشرعة.
العازب: رائع أيها القزم.
القزم: (متابعاً كلامه) أنا مثلاً متَّهَمٌ بمضاجعةِ عنزة، أما أنت فلا نعرف أبداً لماذا اعتقلوك. قد تكون قاتلاً أو شحروراً، ولكننا لن نقبل أبداً بأن تكون الجوهرة الوحيدة في هذا المستنقع. إن لهفتك على الساقية، ودفاعك عن القاتل، عن طائر الخريف، واستبسالك الوحشي والمتقلّب في حرائق موسكو ودمار الرايخ في الوقت نفسه، يجعلك شخصاً غير عادي، وجودُك بيننا كوجودِ ذكر واحد في حَمَّامٍ يعجُّ بالنساء.
العازب: سأضاجع ملعقةً هذه الليلة.
الكهل: (موجهاً كلامه للقزم) إنك جاهلٌ وأميّ حتى في حقدك.
القزم: (غاضباً) هيّا. اعطنا مراويل للدراسة وعلمنا أصول الحقد. إنك رجلٌ مقنّع، رجل ما، يبكي ويضحك في آن واحد، بل يصمتُ ويصرخُ في آن واحد.
مجهول: شيء غريب فعلاً.

الكهل: (موجهاً كلامه للقزم) لا تغضبْ يا صديقي، لا تغضب. إنني أقدر ظروفك كرجل متهم بمضاجعة عنزة. ولكن ثقْ أيها الصديق الحبيب، بل ثقوا جميعاً أيها الأصدقاء البائسون، إنني كما أنا، كما أبدو تماماً، وأعماقي واضحة كالنجوم في الليل.
القزم: بل كجثةٍ في النهر.
الكهل: تماماً، وأصر على كلمة تماماً لأنها على الأقل تنقذني من هذا الإصغاء الفاجع لذَكَرَيِ~نِ من الحيوان يتصارعان دون شفقةٍ تحت المطر من أجل وَكْرٍ مسدود. والدليلُ على ذلك، ماذا تشتهون الآن في هذه اللحظة بالذات؟ ماذا؟
القزم: أن أموت.
الطالب: العنب.
صانع الأحذية: أن أصنع خفاً من المطر لكل الحقولِ الحافية في العالم.
مجهول: أن أصمت بوضوح أشدّ.
العازب: أن أكتب رسالة غرامٍ إلى دجاجة.
الكهل: حسناً . والآن، وقد عرفت ماذا تريدون، وأرى أعماقكم بوضوح كما يرى القرصان جثة وطنه تحت المياه، أقسم لكم جميعاً، بالموت والعنب والحقول الصفراء، إنني لا أشتهي في هذه اللحظة بالذات سوى أن أقبّل كل ما في العالم من تعساء ومشوَّهين ومقهورين، ولأمتْ بعد ذلك فوراً، وقبل أن يجفَّ لعابي عن قروحهم وشواربهم. (يبكي).
القزم: يا إلهي. إنه يبكي. يبكي كطفلٍ ضُربَ على مؤخرته. (يعانقه).
صانع الأحذية: ليمسحْ أحدكم دموعه، فأصابعي ناقصة. بل غير موجودة إطلاقاً منذ التحقيق الخير.
الكهل: لا. لا . دعوها تسيل
دعوها تدخل في الجلد ومسام الجلد
كي لا أنسى الملاعق الصدئة وطيور الخريف
كي لا أنسى المناديلَ المعقودة والمحلولة مئات المرات
عن الندوب والجراح
لتمسح دمعة رجل مجهول
رجل بائس مجهول
يرفع اصبعه كخنجر، بل كسنبلةٍ أمام هذا الصحن القذر
ليؤكد لكم بأنه سيزرعِ بين أسنانكم
يوماً بعد يوم، وساعةً بعد ساعة
صراخاً مجهولاً
صراخاً وحشياً ، لا رحمة فيه ولا شفقة
سيوقظُ العالم أجمع
بدءاً من هذه المغسلة وانتهاء بتلك العتبة.
(يبكي بصوت مسموع)
القزم: (يعانقه مرة أخرى ويربت على لحيته وشعره بحنان بالغ) سيدي، سيدي، أيها الخريف المجهول، يا من طعنّاك في القلب وفي الأحشاء، سامحْنا. سامحنا وإلا طعنتنا في القلب وفي الأحشاء. إننا ننكرُ شكوكنا وهواجسنا منك ومن عينيك المليئتين بالدمع والأسنان، ولكن انتهى كل شيء الآن. منذ لحظاتٍ فقط لم أكن غاضباً منك فحسب، بل كنت أرقص غضباً وزفيرُ أنفي يسلقُ بيضتين، أما الآن فقد انتهى كل شيء، أما الآن وأنا أرى هذه الدموع، وهذه الشَّفة المقصوفة كالغصن تحت ثقل الدموع، فلا أستطيع ، لا أستطيع يا سيدي إلا أ، أنحني أمامك وأطرح عليك صداقتي كالرداء. سألوِّحُ لأجلك لكل طائرٍ أو فراشة، وسأطلق الرصاص على أيةِ ريحٍ أو صيف يهدِّدُ ساقيتك بالرعب والجفاف.

الكهل: (يمسح دموعه بيد مرتجفة) ليذهبْ ما قلناه في الريح، ولنعتبرْه عتاباً خاطفاً على ظهر سفينة تهم بالإقلاع، ولنكرسْ جهودنا وأشواقنا منذ الآن وإلى الأبد من أجل الأشياء الحنونةِ والبائسة، من أجل العشب والعصافير.
الحارس: (يدخل فجأة ويصرخ مرة أخرى) من يشتم الدولة؟
مجهول: لا أحد.
القزم: لا شيء. نتشاجرُ من أجل العشب.
مجهول: من أجل سنونو.
القزم: (منفعلاً وبائساً) سنونو أو عشب، وما الضيرُ في ذلك؟ لقد كفانا شجاراً من أجل الملاعق والمراحيض.
الكهل: نعم يا سيدي، إننا نتشاجر من أجل أشياء أكثر رقة وإنسانية.
الحارس: لا أريد أن يُذْكَرَ اسمي أو اسم الدولة مع العشب والسنونو.
الكهل: تأكد من ذلك.

(ستار)

(يخيّم الظلام على القفص، ويرقد الجميع تحت أغطيتهم متراكمين كالحشرات، ولا يبقى مستيقظاً سوى صانع الأحذية والطالب المجهول، وقد انتابهما أرق قاتل. يسمع في الخارج صوت الساقية الحزين، وأصوات أخرى بعيدة وفاجعة لا تكاد تسمع عبر الصحارى المترامية الأطراف)

صانع الأحذية: هل تعرفُ ماذا بقي في ذاكرتي اللعينة من كل ذلك الهراء اللعين عن الثلوج وبونابرت وحرائق موسكو؟ بقي لماذا اشتهيتَ العنبَ في تلك اللحظة؟ معظمهم اشتهى الحبسَ والموت والبكاء، وانت اشتهيتَ العنب. فماذا تقصدُ ، أرجوك؟
الطالب: أقصد العنب فعلاً.
صانع الأحذية: العنب الذي يغفّ عليه الذبابُ في السحاحير؟
الطالب: نعم.
صانع الأحذية: من المستحيل ، لا بدَّ وأن تعني شيئاً ما.
الطالب: إنني لا أعني شيئاً بالفعل.
صانع الأحذية: مستحيل. ألست مثقفاً؟ إذاً لا بدَّ أن تكون قد عنيتَ شيئاً ما، رائعاً أو منحطّاً لا أعرف، ولكنه شيئٌ ما. لا أنت فحسب، بل كل أولئك الناعمين الودودين الذي يحملون أكفانهم بيد وأمشاطهم باليدِ الأخرى. صحيح أنني لست مثقفاً ولكنني أدرك الأمور بطريقة ما. أتلمسُها بيدي كالدّب.
الطالب: قلت لك أنني أقصد العنب ولا أقصد شيئاً آخر.
صانع الأحذية: لأنه فألُ المطر.
صانع الأحذية: وما علاقتك بالمطر؟ هل أنت شجرة؟
الطالب: لا أعرف بالضبط ماذا أكن، لأن الإنسان في مثل هذه الأمكنة يطرح هويته على حافة العالم كما تطرحُ المستحمَّةُ سروالها على حافة السرير. وأنتم تتحدثون ، بل وأنتم غارقون حتى آذانكم في عالم يسوده البارود والحقد والاصفرار. لمحتُ ورقةً خضراء من النافذة. أنت تعرفَ أن هناك عريشةً ما خلفَ هذه الجدران. شعرت أنها تومئ إليّ، تصافحني، تددغ قلبي كأمي. كدتُ أطير لأعضَّها بأسناني. شيء أخضر، ألا يهمك؟ شيء صغير أخضر في هذه البراري المنسيّة. هل تعرف ماذا يعني؟
صانع الأحذية: لا ورب الكعبة.

الطالب: إنه فأل المطر. ونحن جافون كالخشب. هيا اقرعْ باصبعك على صدري ويرنّ كالأجراس. حتى شعر معصمي يابسٌ كالهشيم.
صانع الأحذية: (يداعب معصمه) هراء!
الطالب: لا، ليس هراء أيها الحذّاء البسيط: ولقد كتبتُ ذلك لأحد أصدقائي في المنفى، مع أن السماءَ كانت تمطرُ عندما قلت له: أن شعرَ معصمي يابسٌ كالهشيم، فأرسل لي سحابةً من الأسنان المهاجرة. أو هل حدث ذات يوم أن قضمت قطرة مطر؟ إنها تماماً كحبة العنب، تتحطّمُ بذورها بين أضراسك كبذور العنب؟
صانع الأحذية: أولاً أنك تمزح، ثانياً إن العنب ينضجُ في الصيف لا في فصل لعين آخر.
الطالب: لا، إنني لا أمزح. (ينشج ببكاء خافت) والمطرُ يهطلُ في أي زمان ومكان عندما تكون الأرض جديرة به. إنه يمامة مهاجرة، بل طعنة رائعة الجناحين، تحط على التيجان وحلقات الدروع، لا على الأحذية والكواحل. في بدء التاريخ يا صاحبي يقالُ أن عوراتِ العذارى الصغيرات كانت تغطى بأوراق العنب، وحلماتهن الصغيرة تُجففُ كالزبيب على سطوح المنازل وفي مقصوراتِ السفن، وقد ظلت مئات السنين تهتزُّ يميناً وشمالاً أمام الريح، أما أفواه الأسرى والخراف المسلوبة من أقاصي الدنيا. لقد قضيتُ طفولتي بين الينابيع، بل في أعماق الينابيع، ودفاتري منثورة على جانبيّ كالحراشف. ومن بعيد يلوحُ لك بيتك ملتهباً بنار الخريف، تلك الخضرة الوحشية والزائلة كقشور الجرح. العصافير تغرد على ميازيب التنك، وثياب اخوتك وأمك وجدتك تخفقُ على السطوح.
صانع الأحذية: قبل أن يعتقلوني ببضعة أيام اشتريت غسالة. غسالة كهربائية. ولكنهم حطموها، بل مزّقوها كاللحم. (ترتجف ذقنه) إنني أتذكرها بألم ممضّ، بل كلما تذكرتها، شعرت بأنني ضُرِبْتُ بفأسٍ قاطعةٍ على عظم ساقي.
الطالب: لا شيء أروعُ من أن ترى بيتك من بعيد، وكأنك تستطيعُ حمله بكل سطوحه وطيوره وأشجاره بسلّةٍ من الخيزران، وأنت قادمٌ إليه من بعيد وسط الموتِ والغبار.
صانع الأحذية: آه. لقد كسا الثلجُ الناعمُ شفيك
واستأصل البرد القارسُ جذور الخوخ والعرعار
وقام الملايين في الساحات المعتمة
يحكّون عوراتهم بالمزاليج والصحفِ الملفوفةِ كالأبواق.
قد يلوحُ لك بيتك من بعيد
ملتهباً بنار الخريف أو بنار الإشراق
ولكن في شتاء المدينة وصيف الأرياف
حيث لا شيء غير الظهور المحنية
لكشْطِ الوحلِ ودفن الموتى
حيث السراويلُ الدبقةُ تُطوى مع ورق الريحان
لا أستطيع أن أفتلَ شاربي وأقول
"الرعب والجنس باطلٌ وقبضُ الريح".
للرجل حوضٌ كحوض المرأة
لا يبحثُ عن الزهرة الجميلة
وطائرُ الخريف عند الغروب
بل عن مكان يتبوَّل فيه
مغموراً حتى شفته السفلى
بخضرواته وأباريقه وأحذيةِ نسائه
وهو يرشحُ عرقاً كالفخار

صاعداً مرتفعاتٍ لا حصر لها
متأبطاً كتباً وقصاصات لا عدد لها
عن الغرغرة والزكام
والمضاجعة عند الغروب
قبل أن تقامَ المائدة وتغسل أقدام الأطفال
حيث المرأة تعبة
وفخذاها ترتعشان بين الملاعق وفتات الخبز.
الطالب: لقد هيَّجْتني فعلاً. لماذا اعتقلوك أنت؟
صانع الأحذية: لا أعلم.
الطالب: كيف لا تعلم؟ أليس لك ذاكرة؟
صانع الأحذية: طبعاً، ولكنني لا أعلم. لا أعلم. وليضربْني الله بمطرقة على رأسي إن كنت أعلم. كل ما هنالك أنني أعمل كحذّاء ، حذّاء بسيط مجهول، أفتح حانوتي كالغابة في كل الفصول، صغيراً دافئاً يكاد الهواء يخفق فيه كالقلب. ثم جاء فتيانٌ ما، بعمر أولادي ، وعلّقوا صوراً ما لأبطالٍ ما. فلم أمانع ثم جاء فتيانٌ آخرون وعلّقوا صوراً ما. فلم أمانع، بل كنت مستعداً لتعليق سراويلهم، طالما أن ذلك لا يؤذيني، وفي الوقت نفسه يخفي الشقوق الواسعة في باب حانوتي. وبعد ساعة، أو ملايين الساعات، وجدت نفسي غارقاً بالدم ـ والصراخ: وقِّعْ هنا، لا هناك، لا هنا. وأنا أصرخ وأبكي وأتوسل. حتى توقيعي في تلك اللحظة كان أشبه بفم صغير يبكي. وبعد ساعة، أو ملايين الساعات، وجدتُ نفسي غارقاً حتى أذني في هذه الأحاديث السخيفة عن البطولة والعنب، وبقية السخافات الأخرى التي تعرفها.
الطالب: وهل كنت تصرخ أثناء التحقيق؟
صانع الأحذية: يا إلهي، وهل كنت أغني؟
الطالب: عظيم.
صانع الأحذية: من هو العظيم؟
الطالب: الصراخ.
صانع الأحذية: هل تحب الصراخ؟
الطالب: إني أعبده.
صانع الأحذية: ولا تعبد شيئاً آخر؟
الطالب: ولا أعبد شيئاً آخر.
صانع الأحذية: إذاً أنت وطني، من حملة الأكفان والأمشاط؟
الطالب: سمني ما شئت، ولكنك ستسمعُ قصتي ولو اضطررت إلى قتلك.
صانع الأحذية: ولكن ، اسمع ...
الطالب: لا لن أسمع ولن أصغي. كنت رجلاً حزيناً أيها الرجل. لا ضجّة لصوتي ولا حشرجة لبكائي، ولا لأي شيء يتصل بي. حتى ثيابه الجديدة في الأعياد والفصول المدرسية لم يكن ينبعثُ منها أيُّ حفيفٍ أو صدى، حتى خُيِّل لي ذات يوم أن سقوط إبرة على الأرض يثير من الضجة والرنين أكثر مما يثيره سقوطي على غابة من الأجراس. وذاتَ يوم وأنا راقدٌ بين إخوتي، على لَهَب القنديل حزيناً مهملاً، قرَّرْتُ أن أصرخ.
صانع الأحذية: تصرخُ وأهلكُ نيام؟
الطالب: نعم وأهلي نيام.
صانع الأحذية: وكيف تمَّ ذلك؟
الطالب: ر فستُ اللحاف عن صدري وصرخت. صرخت كذئب في القفار: أنا إنسان. أنا إنسان، يا أمي يا وسادتي، ألا تسمعونني؟

صانع الأحذية: ولم يستيقظ أحد؟
الطالب: استيقظت هرةٌ ، كانت نائمة مع أختي الصغيرة. نظرتْ إليّ طويلاً بعينين نصف مغمضتين ثم تثاءبتْ وعادت إلى النوم. أما أنا فقد تابعتْ الصراخ بجنون وبدون وعي حتى أصبح وجهي بلون الدم، متخيلاً الجثث المقبورة والقبضات النازفة على الجليد، ما شاء لي التخيل ، حتى استيقظت أمي، وكانت جميلة وعيناها أشبه بطائرين أزرقين حطا لتوهما تحت الحواجب. استيقظت مذعورة ونصف عارية ـ كانت أمي جنسية جداً ـ وصفعتني بقوةٍ على فمي. ولكنها عندما وجدت أن صراخي تضاعف مئات المرات ضمتني إلى صدرها بحنان بالغ وهي تبكي وتتمتم: أيها الوحش الصغير البائس: ألا يمكنك الانتظار حتى الصباح؟ فصرخت بجنون أشد: لا، لا، منذ الآن، منذ هذه اللحظة، يجب أن تلبسي سروالك الداخلي وتبلغي العالم أجمع أنني إنسان. إنسان. وكنت أتلمس بين الفينة والفينة وجهي وقدميّ وأنفي وشعري بهَلَعٍ بالغ خوفاً من أن أفقد من جراء هذا الارتجاف العنيف أي شرط من شروط انسانيتي. ثم قبلتني على فمي المفتوح، وهشّتْ الذباب ، عن عيون اخوتي ، بإعياء قاتل كأنها بقايا عنب لا أكثر، وزحفتْ إلى فراشها متشبثة بأبي من رأسه حتى أخمص قدميه، طارحة ساقيها على ساقيه وذراعيها على ذراعيه كغطاء لم يحكم اغلاقه بعد، وراحا يرتجفان ويلهثان.
صانع الأحذية: كان يجب ألا تضربك فحسب، بل كان يجب أن تنفك عن ضربك حتى يسقط جلدك كله كورق الشجر.
الطالب: يا إلهي، لماذا؟
صانع الأحذية: لأنك تتكلم عنها كداعرة. على كل حال تكلَّمْ عنها بالطريقة التي تناسبك، فأنا على كل حال لم أشاركك الهبوط من ذلك الفرج الغامض اللعين.
الطالب: حسناً . وبعد ذلك تابعت الصراخ ورفع الأيدي بمناسبة وبدون مناسبة. صرت أتلاعب بوجهي كالعجين، أبزغُ كالوحش في كل مكان، حاملاً دمي في جيوبي، محملقاً في العناقيد اليابسة والبراري المحشوة بالضبع والقمل، مختبئاً في المقابر، مرتفعاً وسط الغبار والحشائش. اصرخ واصرخ حتى أصبح عنقي نحيلاً كالسلك. ثم جاءت الريح وانتهى كل شيء.
صانع الأحذية: ولم تستأنف الصراخ بعد ذلك؟
الطالب: طبعاً طبعاً. في التحقيق. كنت أصرخ ورأسي بين الأقدام. كان بيتي بعيداً ومحطماً ، وحبيبتي لزجة كالدم، وجديلتها مطروحة أبداً.
صانع الأحذية: على بساط البحث...
الطالب: على الخصر والكتفين ، أيها المغفل. أو قل سحابة مشنوقة فوق صحراء
صانع الأحذية: وعنقها ، أحقاً من زجاج كما يقولون؟
الطالب: بل من لحم ودم وأطواق. بل من لحم وجحيم ثم ربطوني من خصري وجروني كالقارب عبر الأرصفة.
صانع الأحذية: ولم ينقذك أحد؟
الطالب: أبداً أيها الصديق المجهول. لقد هتفتُ والموسى بيدي. يا أمي يا وطني يا قطتي. ولكن لا صوت ولا صدى. كانت الشوارع خالية ومتورمة، والهراوات التي تحمل عرق الأصابع مطروحة هنا وهناك، وفقاقيع الدم تنهمر كمطرٍ أحمر مزيف على الصدور المهشّمة والأصابع المقلوبة إلى أعلى.
صانع الحذية: وكنت تصرخ كنسر.
الطالب: بل كقطة.
صانع الأحذية: من المستحيل . كنسر
الطالب: يا إلهي، وما علاقتك أنت بالأمر؟ كقطة أو كنسر، المهم كشيء غير إنساني.
صانع الأحذية: وحبيبتك؟

الطالب: كانت تتوغل بين البنادق، مستسلمة وممضوغة دون رحمة، ولحمها الأبيض يهوي كالأشرعة على المناضد، مكسواً حتى أظافره بشعر الشوارب وفقاقيع الأفواه. (تدخل أثناء ذلك من النافذة امرأة شبيهة بالطائر، ترفرف كحلم، بثيابها الطويلة البيضاء، وجدائلها محلولة تتطاير مع ثيابها).
صانع الأحذية: (مشيراً باصبعه) يا إلهي، إنها امرأة.
الطالب: (ملتفتاً حوله) من هي؟ أين هي؟
صانع الأحذية: امرأة . امرأة. ألا ترى؟
الطالب: (واضعاً يده على فم صانع الأحذية) لا تصرخ لا تصرخ. لن يشاركنا أحد فيها. إنها لنا نحن الاثنين البائسين.
صانع الأحذية: ولكن قد تكون حبيبة أو أماً لأحد هؤلاء.
الطالب: لتكن حبيبة أخي.
صانع الأحذية: ولكن الريح عاتية وهي تطير. انظر، إنها تطير.
الطالب: سوف ينالها التعب وتحط كالفراشة.
المرأة: لا ، لن ينالني التعب ، ولن ينالني أيٌّ منكما أيها الغريبان البائسان. ولن أحط أبداً بخُفي الحمر البديع هذا على هذا السهل الواسع من الدم والشوارب النتنة. إنني أبدل أجنحتي كالجوارب. فهناك، على شاطئ الساقية، عربةٌ ملأى بالأجنحة الجديدة تتبعني حيث أطير. عربة من العشب وجوادان من العشب وأعنَّةٌ من العشب.
الطالب: أيتها المرأة الجميلة، نامي ليلة واحدةً بين ذراعي، وأكون لك العربة والجواد والعنان.
المرأة: لا، لا إنني على عجل، وأصابعي متشابكة كعقارب الساعات. أمامي سهول لا حصر لها. أربع قاراتٍ أخرى، سأطير إليها يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة. بكل ما فيها من رعبٍ وسياط وجليد. لا، لا تلمسْ نهدي، إنه من رماد، لا، لا تلمس شعري، إنه رُزْمَةٌ من شرايين الأطفال. الجيادُ تصهل وعيونها على وشك البكاء. سأطير إليها الآن. وداعاً. وقبلاتي لكم، لواربكم النتنة وأعينكم الرمداء. وداعاً أيها الغرباء البائسون.
الطالب: (يندفع نحوها ممسكاً بقدميها منتحباً).
المرأة: لا ، لا تلمسْ قدميّ أيها الغريب، إنهما طائران ميتان. (ثم تختفي محلقة في الهواء).
الطالب: (ممسكاً بقضبان النافذة، يصرخ باكياً) أرجوك أيتها النافذة ، أرجوك يا قضبان الحديد، دعيني أطير إليها. (يستيقظ الجميع على صوت البكاء).
مجهول: ماذا يجري هناك؟ هل انقلب هذا الوكر اللعين إلى مقبرة؟
الطالب: امرأة، امرأة، أيها التعساء.
العازب: إذاً قامت القيامة.
صانع الأحذية: نعم، امرأة. أقبلت كحلم وطارت كحلم.
العازب: طارت ونحن نغطُّ في نومنا كالكلاب؟ يا سلطان الكرى، سأخلعك عن العرش هذه الليلة.
مجهول: لمَ لم توقظونا أيها الرفاق؟
صانع الأحذية: كانت على عجل، وخفها الأحمر لم يلمسْ هذه الأرض ثانية واحدة.
العازب: ربما كان ينتظرها أربعة من السكارى على الأقل في إحدى الحانات.
الطالب: بل أربع قارات من الرعب والجليد.
العازب: هل رأيتما هديها؟
الطالب: نعم، لقد كانا كطفلين محروقين.
العازب: هل لمستما فخذيها؟
الطالب: لا. لقد كانتا ملفوفتين بما يشبه القلوع البيضاء.
صانع الأحذية: أو أعلام الحرب الممزقة.

الكهل: (مستبشراً) إياكم والتحدث في هذا الأمر لأحد. لا بد وأن تعود باكية في الشتاء. أو عارية في الصيف. حتى الطيور تتعرى من ريشها في الصيف.
الحارس: (يدخل فجأة وهو يبتسم) لهيب التعساء كالعاصفة. لتكن ثيابكم نظيفةً وجراحكم لائقةً يا رجال. ولتفركْ الأظافر والسنان المقتلعة على حافة العتبة، ولتعد إلى مكانها فوراً. لتكن آثار الكدماتِ نظيفةً ولائقةً أيضاً، كآثار القبل، فالريح جاهزةٌ وسط الصحراء ـ لتحمل الطيورَ المنفية إلى أعشاشها.
العازب: إذاً إلى أقرب منفى أيتاه الرياح.
الكهل: إذاً إلى أقرب زهرة أو ينبوع أيتها الرياح.
القزم: إذاً إلى لا مكان أيتها الرياح.

(ستار)

العصفور الحدب 2

(فسحة كبيرة موحشة أمام منزل قروي متهدم. أرضها مغطاة بالغبار والقش وزرق الدجاج. نوافذ سوادء، سماء شديدة الزرقة، شجرة جرداء هادئة هدوء الموتى، أطفال نصف عراة يلعبون في التراب والقش. يجلس تحت الشجرة وفوق قطع الحجارة: الجد، الجدة، المشوه، الحبلى، عدد من الفلاحين المجهولين رجالاً ونساء. وكلهم قذرون يغطيهم القش والغبار)

الجدة: إذاً قرَّرتم الرحيل؟
الجد: لا بد من ذلك، لا بد من ذلك؛ فالأشجار لا تجلس بمقهى وتنتظر. إنها في العراء. في العراء، ألا تفهمين معنى أن تكون شجرة في العراء؟
الجدة: ولكن المندوب الزراعي قادم هذا النهار.
الجد: (غاضباً) هذا النهار؟ هذا النهار؟ ثقي يا عجوزتي البلهاء، أن هذا الطفل قد يصلُ إلى جبال الألب قبل أن يصلَ مندوبك الزراعي.
الطفل: نعم يا جدتي، قد أصلُ إلى جبال الألب وألعبُ بطابتي هناك قبل أن يصل مندوبك الزراعي.
الجدة: (بانفعال شديد) مندوبي الزراعي مندوبي الزراعي إنكما تتكلمان كأنني عشيقته. اللعنة عليه، إنني لا أنتظره أكثر مما تنتظره أية نعجة أو ساقية.
الجد: انتظري ما شاء لك الانتظار، بل انتظرِي حتى يورقَ عكازُكِ هذا ويزهر كغصن الزيزفون، ولكن يجب أن تعلمي سلفاً أنه ما من إنسٍ ولا جنٍّ يُقبلُ على هذه القرية اللعينة، وسيظل طريقها خاوياً إلى الأبد، لقد أطلق سراح القزم منذ سبعة شهور وهو ما زال يخمخمُ في تلك المدينة اللعينة.
المشوه: لقد رأوه نائماً في برميل ذات ليلة.
فلاح مجهول: ورآه آخرون في مظاهرة.
الحبلى: ورآه آخرون أيضاً في المبغى.

المشوه: كما رأوه يضرب السيارات الجديدة بالحجارة، ويدخل المقاهي فجأة كالقرصان ويصرخ: من يشتري حقلاً بعيداً بلفافة؟
مجهول: كان رجلاً شريفاً، ولكنه انحدر بشكل لا يحتمل. لقد حدثني سائق سيارة أنه لا يضرب السيارات بالحجارة ويشترك في المظاهرات فحسب، بل يقرع أبواب البيوت ليلاً كالمجنون، حتى إذا ما خرج أصحابها يسألونه ماذا يريد؟ ينتحب أمامهم ويقول: أريد أن أنام.
الجدة: لقد كان رجلاً شهماً وكفى، فلا تتحدثوا عنه هكذا، وقبورُ زوجته وأطفاله لم يجف طينها بعد.
الطفلة: (مشيرة باصبعها إلى أخيها) لقد وضعتُ زهرةً عليها هذا الصباح، ولكن هذا الشقي كل يوم يتبوَّلُ بجوارها.
الجدة: اللعنة عليكما، أتستكثران عليه كتلتين من التراب؟ هيا اغربا عن وجهي قبل أن أجعل من رأسيكما شيئاً يرنُّ عليه عكازي حتى يوم القيامة. جيل الشؤم، جيل الكارثة. (صارخة بزوجها) إلى أين تَنقلُ هذه الأكياس اللعينة أيها العجوز؟
الجد: لا شيء لا شيء. ستنصرف وكأننا سنرحل إلى الأبد، وفي هذه اللحظة بالذات. مع أنني واثق وثوقي بالله، بأنه إذا تحركت هذه الجبال تحركنا من هنا وإلى الأبد. هيا يا صغاري القذرين، ضعوا مناديلكم على رؤوسكم واعقدوها جيداً كالنساء الصغيرات، فالشمسُ لاهبة، والطريق تزفر كالأفعى.
الجدة: أتأخذون الأطفال معكم؟
الجد: نعم.
الحبلى: إذاً لماذا لا تأخذونهم في أكياس؟
الجد: فعلاً هذا ما أفكر فيه.
المشوه: إن منظرهم داخل أكياس ، أو أي شيء لعين آخر، سيجعل الحجر يبكي ويلطم خديه.
مجهول: الحجر، وليس البشر.
الحبلى: بل لماذا لا تأخذون أيضاً بعض التراب اليابس أو القشّ الجاف، أو بعض السعال أيضاً في أكياس من الورق، لعرضها هناك على الطاولات؟ آه لم يعد هناك من كرامة. إنكم تنقلون أسانا كما تنقل الريح أغنية. انظروا، ها هو طفلي يسعل كشيخ في السبعين . (تنظف له أنفه بطرف فستانها) إن مُنَقب آثار لا يجد فتحة أنفه.
الجدة: بل أصبح له ثلاثة ثقوب كما أظن.
الحبلى: آه إنني لا أعرف ورَبّ الكعبة كيف يتنفس، ولماذا يتنفس، بمثل هذه الكتلة الصغيرة من اللحم والغبار.
مجهول: ولماذا يتنفس؟ إن الأطفال الحقيقيين شيء آخر، يختلفون عن هؤلاء اختلاف الليل عن النهار. لقد رأيت بعضهم ذات يوم في مدينة مجهولة، يلعبون في حديقة ورود، نظيفين وناعمين لدرجة انك تشتهي أكلهم بالخبز.
الجد: (يصرخ) هيا، هيا، كلٌّ كيسه على ظهره، كل وطفله على ظهره.
غجرٌ في الصيف، وغجر في الشتاء.
القيثارات محطّمة، والأوتار مجدولة كالثوم.
لصعدوا الهضاب، واهبطوا الذرى.
لا خجل بين الصخور، لا دمع بين العيون،
لا لحاء على الأغصان، لا سراويلَ على اللحم.
اشعلوا النيران،
واشووا عليها بعض البنفسج وبعض الأطفال.
أبوابُ المنازل تبكي،
تصفّقُ للموت بالراحتين.

الأهداب الجميلة تغني،
والدموع الرائعة تتأهبُ للانفجار.
هيا، كل وكيسه على ظهره،
كل وبيته على ظهره.
الأحلام خفيفة كالعصافير،
والذكريات جميلة ورائعة كالفولاذ .
لا بد أن نلتقي بنار أو عاصفة في الطريق.
الطفل: (فزعاً) قد نطير في الهواء.
الطفلة: ونسقط في بيوت الأغنياء.
الطفل: أو في البحر.
الطفلة: سيأكلنا البحر.
الطفل: سنمرّ من بين أسنانه كالأسماك الصغيرة.
الجد: ستأكلكم الأسماك الكبيرة.
الجدة: أسمعتم نهاية أحلامكم التعيسة هذه؟ ستأكلكم الأسماك الكبيرة فور انزلاقكم إليها، فإلى أين تذهبون في النهاية؟
الطفل: نطيرُ كالفقاقيع.
الطفلة: أو نرسو كاللآلئ
فلاح مجهول: محتملٌ جداً. لقد قرأت في صحيفة مجهولة أن عشاقاً ما منذ آلاف السنين يرقدون بكامل ثيابهم وخواتمهم وتوترهم متعانقين حتى الآن في جوفه، وأن ثمة خيولاً جامحة في قاع البحر، جامحة وكأنه اضُربَتْ بالسوط هذه اللحظة.
الجد: (بعد أن يسعل) وسمعت أيضاً من رجل جريح ذات يوم أن اللآلئ ما هي في الحقيقة إلا دموع أبطال مهزومين، رفضوا أن يذرفوها إلا وهم موتى. موتى، أتسمعون؟ (ثم يتهدج صوته من الانفعال الخانق).
الجدة: يا إلهي، كأنه اخترع البارود. انظروا إليه ، كيف يرقص من الانفعال. آه هل تعتقد يا كهلي الحبيب أننا أحياء لمجرد أننا نقطف عنقوداً في الصباح ونغني أغنية حزينة في المساء؟ إننا نجنح في الخيال أكثر مما يجب، ودون أي شعور بالمسؤولية تجاه برعم واحد من حقولنا هذه. مع أن الذي له ذنب يصل حتى الأرض لا يشكّ لحظة واحدة في أن مثل هذه الكتل الحمراء يمكن أن تكون براعم ما، لأنها ليست في الحقيقة إلا شرذمة لينة من الدموع المكتسحة من وسطها، تشبثت بطريقة ما بهذه الحقول الممزقة كما يتشبَّثُ المتسول بنوافذ القطارات. إن المندوب الزراعي قادمٌ بين لحظة وأخرى، ولا نعرف حتى الآن ماذا سنقول له، إذ ليس المهم أن نقول لشخص معين: إن زوجتي تحتضر أو تموت، بل المهم أ، تجعله يمزِّقُ ثيابه طولاً وعرضاً بسبب ذلك.
الجد: سنقول له أشياء كثيرة، كثيرة جداً بعدد النجوم.
الجدة: (ساخرة) بل بعدد ما في فمك من أسنان.
الجد: (يتلمس في فمه وفكيه) يا عجوزتي الطيبة، سنقول له باختصار أن كل ما في القرية جافٌ وملتهب: الحقول والرجال والنساء والأغصان والخراف؛ وأن نسمة قوية واحدة قد تجرفنا جميعاً إلى قارة أخرى.
الحبلى: (مشيرة إلى بطنها) أما أنا فإن الرياح الخمسينية لا تجرفني خطوة واحدة.
المشوه: بل ستحلقين كمنطاد عندما يهجرك الجميع، ولا يكون حولك غير الرياح والأبواب المخلعة.
الجد: (ساخراً) أو عندما تعلمين بأن زوجك غارقٌ حتى عقاله بحب امرأة أخرى.
الحبلى: امرأة أخرى؟ والخنفساء ذاتها تتردد أكثر من ألف مرة قبل أن تحط على طرف اصبعه.

الجدة: بل أنا التي ستحلق كمنطاد، ولو تشبّث كل من هذه القرية بفستاني هذا. انكم تتحدثون وكأن شعر فروجكم هي الحشائش الوحيدة والظامئة في هذا العالم، والتي يجب أن تكون بخضرة السنابل ولو بقوة السوط. وحتى الآن لم أعرف ماذا ستقولون لمندوبي الزراعي ـ حسناً لمندوبي الزراعي، أيرضيكم هذا؟ مع أنني لا أصدق أبداً أن مندوباً حكومياً بذقن حليقة وسيقان رفيعة كسيقان الدجاج يمكن أن يأتي إلى قرية نائية كهذه. لقد انتصف النهار، والطريق خاوية؛ لا ظل ولا زوبعة غبار.

الجد: (بانفعال) زوبعة غبار؟ أتظنينه سيأتي على فرس؟

الجدة: (صارخة بأعلى صوتها) ولماذا لا يأتي على فرس؟ هل تُصابُ مؤخرته بالصداع إذا ما امتطى سرجاً مفضفضاً كهذا؟ إن الملك نفسه يتمنى أن يمتطي سرجاً مفضفضاً كهذا. (تتنهد) يا لكم من سخفاء. أعطني سرجاً مفضفضاً كهذا، وفرساً بعينين حزينتين، لأغزوَ لك العالم قبل أن تلفظ هذه الكلمة لفظاً بشفتيك.

مجهول: يا جدتي العزيزة، إن ما تقولانه ليس كلاماً لا معنى له، إ،ه كلام يجعل أياً منا يرفسُ العالم كله كفرسٍ حقيقية. إننا ننتظر مندوباً زراعياً، يستطلع تباشيرَ الخراب عندنا، ولا يهمنا أبداً إذا أتى على فرس أو جرادة. المهم أ، يأتي وأن يسأل وأن نجيب.

الجدة: هل يلبسُ نظارة؟

الجد: طبعاً.

الجدة: إذاً لا فائدة. هيا اطلقوا الرصاص على هذه الأرض، وراقبوا فقاقيع الدم من نوافذ بيوتكم ومطابخكم.

مجهول: وما الضيرُ في أن يلبسَ نظارة أو لا يلبس. إنها ليست أكثر من قطعة زجاج. المهم أن يأتي ويسأل ونجيب.

الجدة: ولكن المهم أيضاً أن تجيبوه كرجال. كرجال فُتِلَتْ شواربهم حتى الحواجب. وأن تقبضوا على هذه التربة الجافة بقوة، بقوة حتى يتفصَّدَ الدم من أصابعكم ، وتقذفوها في وجهه ذرة ذرة.

الجد: نعم. نعم سنقذفها في وجهه ذرة ذرة.

الحبلى: وقولوا له أن أثلام القمح رفيعةٌ وباهتة كآثار العجلات.

الجدة: بل كآثار السياط.

الجد: (وهو في ذروة انفعاله) نعم سأقول له ذلك. سأقول.

الجدة: قولوا له أيضاً، أنني مثلاً كنت أستحمٌّ فيم امضى بين نباتات القطن نفسها دون أن تلمحني إلا الخراف.

غلام: ونحن يا جدتي.

الجدة: حسناً، الأطفال والخراف.

الحبلى: لقد كان نهداها أكثر بياضاً من أزهار القطن.

الجدة: (بما يشبه الاعتزاز) لقد كانا شيئين أبيضين.

غلام: لقد رأيناك تتبوَّلين أيضاً بين نباتات القطن.

الجدة: (قافزة من مكانها) وهل كنت تريدني أن أتبوَّلَ على السطوح يا قليل الحياء؟ (تصفعه بعكازها) جيل لعين، لعين. إنني لم أعد أجرؤ على النوم مع حفيدي في قارة واحدة في هذه الأيام.

الجد: (يضحك ويسعل كأنه قد استثير).

الجدة: يجب أ، تبكي قبل أ، تضحك أيها العجوز الخرف، لأنك وربّ السموات لم تعرف للآن ما يجب أ، تقوله وما يجب أ، لا تقوله.

الجد: بل أعرف، أعرف.

الجدة: أرجو من الله أن تفعل ذلك، ولكنني واثقة من أن شيئاً واحداً من هذا لن يحدث. ستقفُ أمامه كتمثال ، مقارناً بين حذائك وحذائه، بين شعرك وشعره، وأصابعك وأصابعه. لا كتمثال كما قلت، بل

كعصفورٍ عجوزٍ موحل أمام مرآة موحلة. وإذا ما سقطتْ من حقيبته أية ورقة تافهة ستهرعُ إليها وتلتقطها كسلوقي أنجز مهمته. وأنت تسعل وترتجف وتنحني كقصبة في مهب الريح، لا كحبيبي القديم القديم. (تبكي بمرارة) لا كحبيبي الذي لم يكن لينحني لالتقاط ذراعه نفسها إذا ما بترها سيفٌ ما.

الجد: لا، لن أنحني كقصبة في مهبّ الريح، ولن ألتقط ورقته التافهة كسلوقي، بل سأظل منتصباً وشامخاً بجوارك كأنني متجمدٌ منذ ألف عام.

المشوه: نعرفك جيداً، تقول مالا تفعل وتفعل ما لا تقول.

مجهول: وها هو لونُكَ أصبح بلون الشمع.

مجهول آخر: لقد التقط قشرة برتقال عن الأرض ومضغها متستراً بعباءته.

مجهول ثالث: ورأيته البارحة يجلس القرفصاء في إحدى الخرائب.

الطفل: (مؤكداً ومفسراً) لقد اختطف فطيرتي وجلس يأكلها هناك.

الجد: لا لا ، كنت أتبول.

المشوه: كامرأة. (الجد يحاول شرح الأمور وهو يجهش بالبكاء فلا يصغي إليه أحد. يحط في تلك اللحظة طائر عجوز على شجرة جرداء).

الجد: (للطائر) إنهم لا يصغون إليّ يا طائري العجوز، بل لا يريدون الاصغاء أبداً. قل لهم أنك سنوات وسنوات كنتَ تلتهمُ بقايا فرائسي وأنت محلّقٌ في كبد السماء. قل لهم بأنني لم أنحنِ في يوم من الأيام كقصبة في مهب الريح. قل لهم أ، الحديد ينحني في هذه الأيام. (يبكي بمرارة والطائر يومئ برأسه).

الجدة: (تندفع ملهوفة باتجاهه وتضمه إلى صدرها) يا عجوزي الطيب الصغير، إن لك رائحة العشب والأطفال. إنك...

الجد: لا، لا. ابتعدي عني، أنت والآخرون. لا أحد يحبني، لا أحد يحبني سوى ذلك الطائر العجوز. إنه لي ولن يقتله أحد. (يتحلق الأطفال حوله، قافزين مهرجين).

الجدة: (تهش عليهم بعكازها) هيا اغربوا عن وجهه ، أيتها العقاربُ الصغيرة. عندما كان يعود من الصيد في انصاف الليالي، والصقور الجارحة تتدلى من حزامه المهترئ هذا كالمفاتيح، كنتم أنتم تشاركون القطط على طعامها في وضح النهار.

الطفل: سأقتل هذا الطائر.

الجد: (ملهوفاً) لا، لا. لن يقتله أحد.

الجدة: طبعاً طبعاً لن يقتله أحد. وماذا أفعل إذاً بعكازي هذا؟

الجد: إنه تَعِبٌ ولا يبصر غصناً آخر ينتقل إليه. إنه يرافقني كل صباح إلى الحقل. إنني أراه، أرفع رأسي وأراه، بل أسمع حفيف جناحيه وأنا راقدٌ كالذبابة في قاع العربة؛ ولكن ما أن تتوقف أجراسُ الجياد عن الرنين حتى يتوقف فجأة عن الطيران، ولا يتقدم خطوةً واحدة بعد ذلك، وكأن الفضاء قد قُطِعَ بسكين. ثم يحطُّ على أي شيء، أي شيء، أتسمعين؟ إنه أرمدُ وعيناه كالجمر.

الطفل: لقد حطّ على رأسي البارحة. سأشويه على الموقد ذات يوم.

الجد: (صارخاً) لا، لن تشويَهُ على الموقد ذات يوم؛ كأنك تشوي اصبعي بذلك.

الطفل: سأشويه نيئاً.

الجدة: (تضرب الطفل على قفاه) لا، لن تشوي صديقاً قديماً لجدي.

الجد: اذكر أمه وأباه يا عجوزتي الصغيرة، بل أذكره عندما خرجَ من عشه ليطيرَ للمرة الأولى؛ لقد كان مرتبكاً كتلميذ.

الجدة: له شقيقٌ آخر، كما حدثني ذات يوم ونحن راقدان على المصطبة.

الجد: نعم شقيق آخر، ولكنه أكثر شقاءً وعزلة من أي طائر آخر في العالم. إنه يقضي بقية أيامه منعزلاً كالفيلسوف، هناك هناك مرفرفاً وباكياً أبداً فوق معتقلٍ بعيدٍ مهجور.

الجدة: إذاً فطائرنا على الأقل فألٌ حسن. (غلام قادم بسرعة البرق يخبر الجميع وهو يلهث)

الغلام: لقد حضر المندوب.
الجميع: (وهم يقفزون عن الأرض، مثيرين زوبعة من الغبار} وأين هو؟
الغلام: لقد ذهب. حضر وذهب.
الجدة: (صارخة بأعلى صوتها) حضر وذهب؟ وماذا فعل إذاً، بحق الشياطين؟
الغلام: لا شيء. لا شيء. مدّ رأسه من نافذة السيارة إلى أول حقل صادفه، والتفتَ إليه كما يلتفتُ إلى ساعته، ثم قفل عائداً يتثاءب.
الجدة: يتثاءب؟
الغلام: نعم، يتثاءب.
الجدة: ألم تستيقظي بعد أيتها الملائكة؟ والآن ماذا نفعل؟ تكلموا هل أكلت الفئران ألسنتكم؟
الغلام: ولكن مندوباً صناعياً سيحضر بعد قليل.
الجدة: "مندوباً صناعياً"؟ ولماذا مندوباً صناعياً؟ هل سيقتلعُ فقرنا هذا بكماشته؟
الغلام: لا أعلم، لا أعلم. ولكن ها هو. ها هو قادم بسيارته. (يلتفت الجميع على صوت سيارة غبراء تقف بينهم وقد ترجل منها شاب في مقتبل العمر، يحمل بيده رزمة من الأوراق).
المندوب: (يصرخ بعجرفة وموتور السيارة مازال مدوياً وقاذفاً سحباً لا حصر لها من الدخان) كلكم جلوساً على الأرض، الجميع على الأرض، لا أحد يقف؛ اجلسْ أيها الطفل، اجلسْ أيها العجوز؛ هيا ابعدوا هذه الدجاجات اللعينة من هنا. (ثم يقفز على مصطبة مهدمة ويأخذ بتقليب الأوراق بين يديه، مصلحاً من وضع ربطة عنقه بين لحظة وأخرى).
الجدة: لقد قفز كسنجاب. هيا اقرأها، إنها ليست أكثر من ورقة.
فلاح: بل ثلاث ورقات. إنه يعدُّها كالنقود.
المشوه: هيا اقرأها.
الحبلى:إنه مازال منهمكاً بهذا الشيء المتصل بعنقه.
المندوب: (يصرخ) أيها الشعب الكريم.
الجميع: إننا لا نسمع شيئاً. أطفئ هذه السيارة، لقد ملأتْنا زئيراً ودخاناً.
المندوب: لا، لا أحد يطفئها؛ إنني على عجل، وتشغيلها مرة أخرى يحتاج إلى معجزة.
الحبلى: إذاً هيّا اقرأ ما بيدك بسرعةٍ وباقتضاب، قبل أن ألد لك غلاماً في شهره السابع. إننا نختنق.
المندوب: أيها الشعبُ الكريم. أيها الشعب الكريم.
الجدة: حسناً حسناً، لقد سمعناك. أيها الشعب الكريم، وبعد ذلك؟
المندوب: (غاضباً ومزمجراً) أودُّ أن أقول، قبل كل شيء، أن بلاء العالم ووباء البشرية كله منكنَّ أيتها العجائز القميئات الثرثارات. إنني أشتري سكوتكن بذهب العالم كله. هيا أغلقْنَ تلك الغابة اللعينة من الأفواه.
الجدة: وهل أتيت من حاضنة أيها الغلام؟ جيل الشؤم جيل الكارثة. هيا اقرأها ، تلك الورقات الثلاث، لنرى أيَّة أمطارٍ سوف تنبثقُ عن الأرض والسماء بعد ذلك.
المندوب: أيها الشعب الكريم، أيها الشعب الكريم:
لقد سمعنا من بعض الطلبة العائدين من العطل المدرسية أ، بعض العجائز والكهول الساخطين هنا وهناك يتذمرون ويشيعون أن سلطتنا لا توليهم الاهتمام الكافي ولا تعرف شيئاً عن حقولهم اليابسة وطيورهم الجائعة. إن السلطة، مع نفيها المطلق لمثل هذا الشعور الزريّ، تعلن أن السماء وحدها تتكفل بمثل هذه المخلوقات التافهة، لأن السلطة ليست زرافة لتمد رأسها من النافذة كلما سعل شيخٌ أو بكى طائر وهاجر آخر: لأن العشب والطيور أشياءٌ تافهة يمكن إزالتها كشعر الذقن دون أن يحدث أي رد فعل في سياستنا العليا ثم لا يحق، من جهة أخرى، لبضعة أشخاص طيبين أو مقهورين أن يتحدثوا في الأزقة وحول المواقد بما يشبه العويل والنواح، من أجل سحابةٍ لا تمطر أو ابن ذهب ولم يعدْ أو ساقية

تهرٌّ كالكلب منذ أجيال. لا يحق لهم ذلك أبداً ، وخناجر أبنائهم تملأ المستودعات، وقتلاهم مازالوا يقطرون دماً في ساحات المدارس. إن غابات أخرى أشدّ فتنة واخضراراً تنبثق من جوف الأرض محمّلة بأقصى ما يمكن من ذلك البنفسج الغابر والصقيع المعدني، لتؤدي واجبها تجاهكم بنعومة الثلج ورقةِ العصفور؛ وأن حقولاً شاسعة لا نهاية لها ستُقلب بكل ما فيها من أشجار ومواعيد وذكريات، كما يُقلَبُ الحذاء على السندان، لكي نؤمِّنَ لنسلكم، المتعفن في المباغي والبراميل الصدئة، الكتاب والمحبرة والمنديل.
ولكنكم ستقولون، والدموع تغطي وجوهكم ، إن ذكرياتكم كلها محفورة على تلك الأشجار، وأن هذه الأشجار سوف تبكي وتضرب أغصانها على الأرض كالجبال، وأن الأنهار ستسافر دون عودةٍ حاملةٍ على مياهها الكئيبة أسماءكم وصُرَرَ طعامكم ورماد مواقدكم. لا، لا، أبداً أيها الشعب الكريم . إن هناك من يصطادُها كالأرانب في الأدغال الموحشة، إذ لم تعدْ هناك أبداً أنهارٌ صافية تعكس أعضاءكم التناسلية وأنتم تشوون الذرة على ضفافها؛ ولم تعدْ هناك قرى تُضاء بالنجوم، وتنام على أصوات الذئاب واليمام المهاجر، بل هناك قرى فذة ومصقولة، يمكن ضغطها في أية حقيبة سفرٍ ووضعها أمام الحوانيت والمنعطفات، دون أن تثير رقَّة حاجب واحد من أولئك الذين يعبرون الدروب المقفرة وفي كواحلهم ترنُّ مزامير التاريخ. قرى جميلة وحاسرة الرأس، تسهر وتستيقظ وتنام على صدى الأقدام الرائعة وهدير الشاحناتِ المعبَّأةِ حتى حوافها العليا بالمؤن وبَكَرات المصاعد.
ثم إن رجالنا ليسوا ممددين في أسرّتهم الحريرية، كما تتخيلون، بل إنهم يعيشون في رعب لو قيسَ برعبكم الخاطف هذا لاعتبرتم أسعدَ حيوانات الله على الأرض؛ إنه رعبٌ ينفجرُ كحبَّة الكستناء في كل لحظة، في المبغى والحانة، من زجاجة العطر وآلة الحلاقة؛ رعبٌ لا يمكن مقارنته إلا ببركانٍ عظيم من الدم الأحمر القاني، يطلقُ شظاياه بكبرياء الملوكِ على الجباه والصداغ المهشَّمَةِ بأطراف المساطر.
بعضهم ينامُ وأسلاك الهاتف في أذنيه، وبعضهم الآخر يرحل كالسُّحُب في الصحراء ، إلى أبعد القرى و أكثرها قذارةً ووحلاً وفوضى، ليواسي الأم الجريحة والأب المفجوع، ولكن بفخر لن يحسُّهُ أبداً من يقضي طوال النهار أمام الذباب وكِتَلِ التَّمر. مسرعون، مسرعون أبداً وزوجاتهم يرتعشْنَ عراةً أمام المرايا. ولذلك فثمّة إبر ، إبر لا حصرَ لها، بعدد كل ما في حقول العالم من سنابل وعذارى مهجورات، تدرزُ الأعلام الخفَّاقة والقمصان التي تمتصُّ رمل الصحارى وغبار المدن، قاذفةً بها في كل الاتجاهات كما تُقْذَفُ قشورُ البذر من بين الأسنان.
إن التيار يجري، وعلى القصباتِ الوحيدة والمهجورة أن تنحني، لسلامة رأسها. وإن أية ريح ستحمل لنا بعد الآن بكاءً أو صراخاً ، أو مشوهاً، أو عاهرة، ستُصْفَعُ على وجهها.
إنكم مطوَّقون بالرعبِ والمحبة، وإذا كنتم تحلمون بأسرار إضافية فلن تكون إلا من قبوركم، لا تفريطاً بأرواحكم وأموالكم أيها الصامتون الحيارى، وإنما اختصاراً لآلام التاريخ، وتأدية الأمانة لأولئك الذين فتحوا العالم على مصراعيه ثم جلسوا يقطرون دماً بين السنابكِ والمخالب الغازية، يحلمون وأيديهم على خدودهم بصوت الرباب ودخان المزابل. ابكوا، ابكوا ما طاب لكم البكاء؛ لا يهمُّنا أبداً إذا ما انتهى عهدُ الأغنية الحزينة وانقرض زمانُ الانتظار الممضّ بين الينابيع. لا يهمُّنا أبداً إذا كانت الأغصان خضراء أو صفراء، بقدر ما يهمنا أن تكون أطراً صالحةً لصور أبطالنا وشهدائنا.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. (يهبط عن المصطبة وقد كساه العرق والانفعال).
الجدة: هراء. كل ما قاله هراء.
الحبلى: لم أفهم شيئاً على الإطلاق.
مجهول: لقد فهمت بعض الشيء، إن شهداءنا ليسوا بحاجة إلى براويز لتخليد ذكراهم.
الجد: لأن معظمهم يموت من الجوع والضجر.
الجدة: يمكنكم أن تجملوا كل ما قاله في شيء واحد: هراء. هراء.
الجد: والآن ماذا نفعل؟

الجدة: سنفعل أي شيء؛ سأثقب أسوارهم بعصاي هذا. (صارخة) أيها المندوب الصناعي، إنني أخاطبك، ألا تسمع؟
الحبلى: وماذا يفيدك هذا الصراخ؟ إنه لا يفقهُ شيئاً بأمورنا.
امرأة: لماذا لا يفقه؟ لا بد وأن يفقه، هيا دعوه يرى بأم عينه بعضَ البراعم الذابلة.
المشوه: سيظنُّها بعض البراغي . (المندوب يحاول التملص من أسئلة الفلاحين وأيديهم الممتدة حتى ذقنه، فتسقط ورقة من أوراقه وتتهاوى على الغبار. ينظر إليها الجميع بهلع ويبتعدون عنها وقد انتابهم صمت عجيب، بينما يهرع إليها الجد بحركة لا شعورية وينحني لالتقاطها، ولكنه يتجمد في وضعه ذلك وعيناه مليئتان بالرعب والخجل).
الجدة: يا إله السموات. لقد هرع لالتقاطها كما قلت.
فلاح: كسلوقي، كسلوقي جَرِب.
المشوه: قلت لكم إنه جبان، يقول ما لا يفعل ويفعل ما لا يقول.
الطفل: لقد قلت لكم أنه سرقَ فطيرتي وأكلها بعيداً بين الأطلال وأنا أضربه بالحجارة.
مجهول: وماذا في الأمر؟ حتى لو سقطتْ تلك الورقة في حوض سيتعلم العجوز السباحة ويلتقطها ككلب الماء.
المندوب: يا إلهي. ناولني تلك الورقة أيها العجوز؛ هل هي عقرب؟ إنها ورقة.
(يلتقط الجد الورقة بحركة لا شعورية عن الأرض ويسلمها للمندوب ويفرك يديه بجانبها وهو يبتسم ويرتجف في آن واحد).
الجميع: لقد انحنى كقصبةٍ في مهب الريح.
المشوه: والتقطها كسلوقي جرب.
المشوه: (مختنق الصدر) ولكنها ليست أكثر من ورقة.المندوب قال ذلك.
الجدة: ولماذا لم يلتقطْها هو؟
فلاح: (يتقدم نحو الجد رافعاً يده) بودي أن أصفعه على فمه هذا. (الطائر يصرخ).
الجد: (وهو يرتجف ، متراجعاً إلى الوراء) لم أكن أريد التقاطها. ولكنني فعلت ذلك. (يبكي بمرارة. تحدث خلال ذلك فوضى عنيفة على أثر ذهاب المندوب، والناس بين متذمر وغاضب ولا مبال، يتسلل أثناء ذلك الجد ويختفي في أحد الأزقة، بينما يصفق الطائر بجناحيه ويختفي أيضاً.
المشوه: لقد هرب العجوز.
الطفل: قد يأخذ فطيرتي، فهو يعرف أين أخبئها.
الطفلة: أوتسمي القطعة الممزوجة بالدبس القذر فطيرة؟
الطفل: إنها على كل حال أفضل من الخبز، ولولاها لكنت أتعسَ طفل في العالم. (يركض مسرعاً وراء الجد وهو يلتقط الحجارة في طريقه).
الجدة: والآن ماذا نفعل بعد أن انتهى كل شيء وديسَتْ كرامتُنا بالأقدام؟
المشوه: صحيح، ماذا نفعل؟
الجدة: لنرسلْ لهم شيئاً يرغمهم على التفكير بنا ومعاملتنا كبشر.
مجهول: لنرسلْ لهم رسالة.
الجدة: بل لنرسلْ لهم سنبلتين جافتين.
فلاح: ستتحطمان على الطريق يا جدتي.
الجدة: لا، لن تتحطما.
فلاح: (صارخاً) يا جدتي العزيزة، لا يمكنك مجابهة العالم بسنبلتين محطمتين.
الجدة: (تخبط على وركيها) إذاً ماذا نفعل؟
الحبلى: ننتظر نسمةً قوية واحدة. (الطفل يقبل مسرعاً، وهو يلهث).

الطفل: لقد انتحر جدي. لقد انتحر، وفطيرتي ما زالت كما هي.
(يصفع الجميع ويختنقون الواحد تلو الآخر. تهب رياح حزينة ولا يسمع سوى حفيف الأشجار اليابسة وعواء خافت من بعيد).
الجدة: (أمام جثة زوجها، تبكي ملوحة بمنديلها وتغني للرياح).
لقد مات الكهلُ ورحل الطائر.
الكهلُ سيدفن باحترام ،
ولكن ماذا سيحدث للطائر ؟
سأطوي فراشي وفراشه إلى الأبد
وأظل قرب الجدران المهدمه
في المطر وفي الزمهرير
في الليالي المقمرة والليالي العاصفة،
ناقلة عيني كالحدأه
بين الموقد والثياب المحفوظة للذكرى،
منتظرة أن يعود مرة واحدة بعد الآن
مُعَبَّأً حتى ذقنه وريش الصقور.
(تتلمس ثوبها وهي تبكي):
سأعلّقُ هذا الثوب المشجَّر بمسمار
ولن أرتديه إلى الأبد.
لقد ابتاعه لي، من أكثر الأسواق ضجةً وزحاماً،
فيما مضى ، فيما مضى،
وكان الناس يلوحون لنا سعيدين مبتسمين
وفرسنا تنقرُ البلاط بحوافرها
كأنها تريد ثوباً أو لجاماً لمهرها البعيد.
سأظل قرب الموقد
اغزل الصوف لكهلي الحبيب.
لقد انحنى:
ولكن كملكٍ يلتقطُ تاجه،
كرجل أُطلق عليه الرصاصُ من الخلف.

(ستار)

العصفور الأحدب 3

(يصبح الكهل الغريب، الذي كان معتقلاً في القفص وسط الصحراء، أميراً وحاكماً مطلقاً على رعاياه. ويصبح العازب، المصاب بالشذوذ الجنسي وزميله في القفص، قديساً وناسكاً يشار إليه بالبنان.
قصر من الرخام تحيط به الأشجار الوارفة، يقف عند كل ركن من أركانه عسس مسلح. نافذة عالية تطل على ساحة رمادية كبيرة. يقف فيها عدد من الغوغاء وكل منهم يحمل في يده صرة قذرة وسنبلة

صفراء، أفواههم مفتوحة وعيونهم محدقة بالنافذة ـ حيث يطل الأمير وحاشيته بين لحظة وأخرى من هناك. كلاب صيد تمرح في الحديقة وخادم عجوز يقذف لها قطع اللحم ويضحك.)

أصوات: نريد مطراً أيها الأمير الشاب
ولكن للأبقار الشاحبة، والسنابل التي تفرقع كالأصابع.
الأمير: لتمطرْ السماء.
مرافق الأمير: ولكن السماء لا تمطر يا سيدي.
الأمير: قلتُ لتمطرْ السماء.
الحاشية : ولكنها لا تمطر يا سيدي.
الأمير: أطلقوا عليها الرصاص.
مرافق الأمير: ولكن الغيوم بعيدة.
مرافق الأمير: ولكن الغيوم بعيدة.
الأمير: ضعوا سلالم واصعدوا عليها، هزوها كالعرائس، واتركوا شعبي يلتقط مطره من بين قدميّ.
مرافق الأمير: مولاي، ذلك مستحيل، والوضع خطير وجامح. ألا تسمع؟
أصوات: جاءتنا رسائلُ مطوَّلة من القرى
رسائل دون مغلفاتٍ منقولة من يد إلى يد
كالأعلام المخفية
كالأعلام المنقولة من يد إلى يد
في نهاية المعارك الخاسره،
رسائل تتحدث عن الأشواق والتحيات
عن المواقد المطفأة
والذئاب التي تنهش الوديان كاللحم.
الأمير: (لمرافقه) قل لهم أن يأكلوا طيورهم أو أطفالهم.
أصوات: أعراف الديوك ذابلة
وأصابع الأطفال يابسة كالعيدان.
الحقول تبكي
ورماد الأزهار ملفوف كالملح بأطراف الفساطين.
الحاشية: مولاي، ألا تسمع ما يقولون؟ ماذا نعمل يا مولاي؟
الأمير: أطلقوا عليهم الرصاص.
مرافق الأمير: ولكن الأرض عطشى للمطر، لا للدم.
الأمير: (غاضباً) الأرض العطشى تشرب كل شيء، تشرب حتى دم الطفل، عندما تكون شقوقها تتسع لحجم الطفل. عندما كنت أجتاز الصحراء، وحيداً وقذراً في طريقي إليكم ، لم آكل عشباً يابساً فحسب، بل أكلت طيوراً حية أنهت تغريدها في أحشائي.
الحاشية : مولاي، ماذا تقول؟
الأمير: أقول أكلت رملاً في الصحراء، وسحقته بين أضراسي في السجون، كي أضمن قوة المسير، والانحدار إليكم ، إلى الوطن.
القزم: (صارخاً من الساحة) لقد عرفناك أيها الكهل المجهول، ولذا جئنا إليك وقلوبنا مفتوحة على مصاريعها. أنت يا من ذرفت دموع الثكالى من أجل طائر مضى، ورفست أغطيتك طوال الليل من أجل ساقية تنام في العراء. وها أنت الآن بذات العيون والشفاه والأيدي، تقف خلف الجدران المحصنة لتنفث حقدك علينا كالينبوع.

الأمير: اخرسه. اخرسهم بطريقة ما. لقد نفذ صبري، كما نفذ تبغي منذ لحظات، وضيفنا الجليل آتٍ بين لحظة وأخرى.
مرافق الأمير: (للجماهير) عودوا إلى منازلكم أيها البائسون، فالأمير غاضب، ووجهه طافح بالشؤم، لانكم تخاطبونه كأصدقاء قدامى، وهو لم يسمع بكم من قبل. هيا أسرعوا إلى بيوتكم. الريح تعصف، والسوط يأخذ مجده في الأيام العاصفة.
القزم: بلى، إنه يعرفنا. يعرفني أنا على الأقل. هيا قل له: الرجل الذي كان متهماً بمضاجعة عنزة وبرّئ من التهمة، والذي جادلك بعنف عن هتلر وحرائق موسكو دون أن يعرف شيئاً عنهما، يريد أن يراك. قل له: الرجل الذي لوح لك بقمبازه على طريق المعتقل حتى غابت سيارتك في الزحام والدموع تملأ عينيه، يريد أن يراك. لا وطن له ولا مأوى، ولذلك يريد أن يراك.
مرافق الأمير: لا فائدة، لقد ضاع كل شيء. تواروا عن الأنظار، تواروا جميعكم قبل أن يحصدكم رصاص الزوايا. البارحة، البارحة فقط أعتقل رجالنا حدّاء يهتف للمطر والحب، حدّاء شامخاً كالآلة، يرفع سنابله المحطمة في أكثر الدروب وعورة وخطراً وأطفاله يهرولون أمامه كأمير في رحلة صيد. وقال أيضاً أنه يعرف أميرنا، ولكنه كان كاذباً، فجلد هو وزوجته في عرض الشارع، وألقيا متعانقين في السجون البعيدة، ولحمهما مخطط كغطاء الطاولات.
القزم: ولكن مهما كانت الأخطار تحدق بنا لن نرحل مالم نعرف بوضوح ودون مواربة إذا كان أي أثر للصداقة قد بقي في هذا العالم أم لا. كنت أستيقظ في أعماق الليل لأغطي له قدميه القذرتين، أحكّ ما لم تطله أصابعه بأصابعي، وأجلس القرفصاء وأغلي له ثيابه كامرأة.
الأمير: ماذا تفعلون أيها الحرس؟ هيا، ليمثل أحد هؤلاء الدهماء أمامي فوراً وإلا انفجرت كالبركان.
الحاشية: ولكنهم قذرون ورائحتهم ترغم جيشاً على التقهقر.
الأمير: (بغضب) وهل سوف أعانقهم؟
الأمير: سمعاً وطاعة يا مولاي. (يطل من النافذة على الساحة ويشير إلى القزم كي يمثل في حضرة الأمير) تعال أيها القزم البائس، أيها المرحوم سلفاً. الأمير غاضب، وهو بانتظارك كالبركان.
القزم: قل له أنني قادم كالسيل. (يصعد السلالم بسرعة البرق. ويندفع نحو الأمير بغبطة بالغة) يا صديقي العزيز. يا حبيب الطيور والسواقي. من كان يظن أننا سنلتقي بعد كل ذلك العذاب والرعب والأنوف المحطمة؟ هنا، في هذه الرياض الفاتنة والقاعات المدججة بالسلاح. (يحاول معانقته).
الأمير: (يتحاشى ذلك بامتعاض) اسمع أيها الرجل، أو أيها الشيء اللعين الدامس: قبل أن تبذر عواطفك سدى، أريد أن أوضح لم أمراً ما. أنني لا أنكر معرفتي بوجهك النتن هذا، ولكن كمعرفتي بصحن قديم، لا أكثر.
القزم: يا إلهي ماذا يقول؟ (موجهاً كلامه للحاشية).
الخادم: يقول ما يقول.
الأمير: نعم أقول ما أقول. قد يضطر أعظم الأباطرة شأواً وسطوة أن يحني عنقه لحلاق مجهول.
القزم: ماذا تقول يا رجل ؟ كأنني أراك تنتحب على صدري.
الأمير: قل "يا سيدي".
القزم: إنك تمزح. أنت صديقي. صديقي الوحيد كما أعرف، فالآخرون يبصقون عليّ في الطرقات، ويلقون عليّ الأقذار من النوافذ. لقد ماتت زوجتي وأطفالي ولا أعرف كيف...
الأمير: (غاضباً وملوّحاً بسوطه) وهل تريد مني أن أخرج لك حورية من جيبي؟ إنني لا أمزح ولا وقت لدي للمزاح. ثم طالما لا أرض لك ولا مزرعة، ولا زوجة ولا خروف حتى، فلماذا تستقتل من أجل صديق؟
القزم: يجب أن يكون لي شيء ما.

الأمير: حسناً، صادق قدمي هذه. إنك جبان ومنحط. تطالب بالمطر والحب وكأن عطر ياقتك يفوح من الجهات الأربع. إن المطر والحب ليسا في أدراجي لأعطيك حفنة منهما. هيا اغرب عن وجهي قبل أن أملأ هذه البالوعة أكثر من مرة بدمك اللعين.

القزم: (متراجعاً إلى الوراء ومودعاً بلباقة مبالغ بها).

هنيئاً لك بالسوط والحزام اللماع
ولتعد أشواقك الغابرة
عبر العاصفة وخلال النسيم
كي تستقر في القلب الجميل الخفاق
كي تستقر في اللاشيء
قلب الأسد الهارب والعرين المباح
لتعد مرفرفة فوق تلك الخوذ الفضية
والأصابع المسحوقة تحت العجلات
مصحوبة بهذه السحابة الرائعة من الحزن
فالعنب الأحمر لا يسيل على شفاه القطافين
ولكن على حديد المقاعد وعورات البغايا
حيث الجلود المسلوخة برفق
تنتظر نسمياً عابراً
ينتثر عليها رمادك ورماد الملايين
كما تنثر المساحيق على الوجوه.

الأمير: (يسفعه بالسوط على وجهه) أية وجوه يا هذا
الوجوه الباسمة في الغابات
الوجوه المحتقنة فوق فوهات المناصل
والمطروحة أبداً قرب فطائر الأطفال
الوجوه التي أضحت غابات من الشعر والدم.

الحاشية: ولكننا لم نفقه شيئاً مما يقوله ذلك الغراب.

القزم: طبعاً لن تفقهوا شيئاً، لأنكم حشرات، حشرات مدفونة في عدد لا يحصى من القمصان والسراويل، لا ترون الفقر إلا من خلال المدافع أو مرايا التاكسي.

الأمير: إنك جبان ومكابر. اصغ إلى تلك الهتافات المدوية. فهي خير فلينة تسد بها فمك اللعين هذا.

القزم: لا أسمع ولا أستطيع أن أسمع يا صديقي. داخل القضبان أو خارجها لا فرق يا صديقي..

الخادم: إنه لا يقول "سيدي" مطلقاً.

الأمير: ولماذا لا تستطيع؟ أخبرني لأقذف لك بقدمي تعويضاً مغرياً عن ذلك.

القزم: (منفعلاً وباكياً) لقد حطمتني يا رجل، ونثرت الملح القاتل في أكثر جراحي عمقاً وكبرياء. لا أستطيع، لا أستطيع أن أصغي إلى شرذمة العصافير المرذولة تغني، طالما هناك عصافير حمراء وخضراء تمزقها القنابل وهي على أهبة التحليق، وأرانب بيضاء وزرقاء تصرع فجأة على حواف الينابيع، وعذارى نحيلات وسعيدات، ينتظرن عشاقهن عند المنعطفات، يحضرن الكلمة الجميلة والنظرة الساحرة، ليلقنها بين لحظة وأخرى، وعشاقهن ممزقو الرؤوس في الدهاليز وتحت الأضواء البربرية. (مشيراً إلى رفاقه في الساحة) لقد جاؤوا إليك من قرى بعيدة لا يعلم إلا الله أين تقع، بالسنابل المحطمة، لا لتعيدها خضراء أو حمراء، ولكن لتقول لهم فقط: حسناً أيها الرفاق القدامى، عودوا إلى منازلكم ، لقد رأيتها.

الأمير: لا تحدثني كقيصر وذبابة في آن واحد. أعرفك تماماً كما أعرف نفسي. عندما كان الوطن يحتضر ويثب كالجرادة في حلبات الموت، عندما كان شبابنا الوسيمون يمتطون طائراتهم إلى مصيرهم المجهول، كنت أنت تمتطي عنزة في أحد المراعي. هيا احمل متاعك وامض حيث تشاء أو لا تشاء وبلغ تحياتي إلى عنزتك وذيلها الذي ما زال يقطر دماً كالصنبور على صخرة الوطن. هيا لا تلتفت وراءك، فالرياح تقذف غزلانها الجميلة كاللفائف. أسرع، أسرع. إنك لست أكثر من أ،رج حقير في سباقي للدراجات.
القزم: أيها.. أيها الأمير، تعرف أنني لم أضاجع تلك العنزة، وإذا ماتت فلأنها هرمة، أو لأنها قرفت من هذا العالم، ولذلك لن أحمل متاعي وأرحل، ما لم تقل لي بطريقة ما... وداعاً أيها الصديق القديم.
الأمير: لا وقت لديّ.
القزم: ولكنها كلمة واحدة. كلمة صغير كنملة. أتخاف منها أيها السفاح؟
الأمير: (صارخاً بجنون) لست خائفاً أيها الوغد. إن كل كلمات العالم لا تملأ غمداً فاراً أو كوباً على طاولة. ولكن لا وقت لديّ. (يقبض على القزم من سترته ويصرخ) اسمع، كم عندك من أطفال.
القزم: لاشيء.
الأمير: كم كان عندك فيما مضى؟
القزم: بعدد ما على طاولتك من دبابيس.
الأمير: لنفترض عشرة، عشرة دبابيس، لأنك حتماً من فصيلة الأرانب، يكفي أن تطعمهم بعض الحساء والدقيق حتى يملأوا العالم شكراً وامتناناً. أما أنا فعندي في هذه الرزمة البسيطة من المصنفات مئات، بل آلاف الأطفال. التاريخ طفل، والوطن طفل، والمستقبل طفل، وعليّ أن أرضعهم الخشب والحليب والدم والعرق والرصاص والسحابة دفعة واحدة، وإلا صرخوا جميعاً كأحقر الجراء الضارية.
القزم: إنك تتلون كالحرباء.
الأمير: بل كالشفق.
القزم: ولكن ما قاسيناه وما قاسته نساؤنا...
الأمير: (مقاطعاً بانفعال مدمر) لتذهب إلى جهنم! أعرف سلفاً ما سوف تقوله عن الرقاد تحت السلالم والارتجاج في الحافلات والمصاعد الخانقة، وأن عذارا كن جميلات جئن إلى المدن ببراءة الفراشات، ثم عدن قذرات مهملات يرتقن بكاراتهن كالجوارب. ليذهبن إلى الجحيم أيضاً! كن يتلذذن بذلك حتماً. أما أنا فأقول لك إن الرذاذ الذي تطاير من شفتيّ أيام الذعر والكفاح المرير ، كافٍ لري نصف مزارعكم.
القزم: (بانفعال شديد) ولكن من أجل ماذا كان ذلك الصراخ والعذاب؟
الأمير: (مندهشاً) من أجل.. من أجل الشعب؟
القزم: وهل نحن من الأبقار؟
الأمير: أيها الحرس. أعيدوه إلى القفص القديم. إن لسانه أطول من سوطي هذا.
الخادم: ويمكن فتله مع شاربيه، ولكن إلى أسفل. كلهم أذلاء وقذرون.
القزم: (مكباً على قدمي الأمير) لا لا. أرجوك أيها الصديق القديم، سأقول لك "يا سيدي" حتى الموت. سأحمل أمتعتي وأمضي إلى الأبد، ولكن لا تعدني إليه.
الأمير: إذاً هيا إلى براميلك الصدئة أيها السلوقي اللعين. (القزم يحمل صرته ويهبط الدرج مضطرباً إلى أقصى الحدود، ويختبئ بين زملائه في الساحة هائجاً منتحباً).
مرافق الأمير: ما تفعله خطير يا سيدي. يجب ألا تنسى أن قشوراً كثيرة من لحمك وشرفك ما زالت طافية في بواليع السجون، وأن الشعب هو الذي لملم الكثير منها وأعادها كأوراق الورد لتكون له أباً وأماً، لا ذئباً وجلاداً.
الأمير: قل ما تشاء يا مرافقي الطيب الحنون، لأنك صديقي الوحيد في هذا العالم، وسيكون أي سوء يصيبك بمثابة كارثة موجهة من السماء إلى قلبي. ولكن اسمع يا صديقي العزيز. أحب الشعب، أحب

هؤلاء الفلاحين، أحب أسماءهم في الكتب، ووجوههم في المجلات الملونة، حيث ذرات الجبن تلمع تحت شواربهم كالثلج. حيث هم وحيدون وصامتون وناعمون على الورق. أما وجهاً لوجه، تسمع زفيرهم وتلعثمهم، وتتأمل على مسافة سنتمترات فقط دماملهم وأسنانهم وأقذارهم المتراكمة كلحاء الشجر، فهذا ما يجعلني أنفر منهم ومن العالم أجمع، كما ينفر الطائر من الرصاصة.

مرافق الأمير: ولكن أنت منهم يا مولاي. من صفوة الشارع وصلب الدهماء.

الأمير: نعم نعم أنا منهم، ولكن دمي لا يجري إلا في الذرى العليا من الشرايين.

مرافق الأمير: وكلن هذا خطأ كبير.

الأمير: (باكياً وصارخاً) لتذهب إلى الجحيم! على الأقل أ،ا أخطئ أو أصيب، أما أنت فماذا تفعل؟ سوى أنك لا تخطئ ولا تصيب، بل تدور حولي في الليل والنهار، مشجعاً ومنبهاً ومحذراً، كأنني أحبوا على قدميّ، بل أقف مستقيماً على رؤوس الأصابع لأشرف من هنا، من هذه النافذة، على ...

مرافق الأمير: أعظم انجاز في التاريخ. وداعاً. (يخرج المرافق ويصفع الباب حوله).

الأمير: (باستهزاء) وداعاً؟ وداعاً! الآن أستطيع على الأقل أن أحلم وأصرخ وأبكي كما أريد، فأنا حر ووحيد، حر وشاهق كالجبل، قادر على إشعال الجليد وإطفاء النجوم، بل قادر على إرضاع جرائي الضارية حتى الاختناق، لا بتلك الخزعبلات والتنهدات، ولكن بهذا السوط ـ كل شراييني بقسوته ومرونته. (ساخراً) يحدثني عن الشعب ذلك المرافق التعيس، وكأنني أعيش فوق السحب. لقد رأيتهم على أطراف الحقول والذباب يحوم على فؤوسهم. ورأيتهم في السجون البعيدة يصلون كالرهبان من أجل الوطن، ويتشاجرون بالسلاسل من أجل قطعة مخللات.

الخادم: (يدخل فجأة) لقد انتحر مرافقك يا مولاي.

الأمير: (بدهشة) انتحر؟ وضيفنا العظيم آتٍ بين لحظة وأخرى؟

الخادم: مولاي إن منظره لرهيب، إنه مكبٌّ على الطاولة هناك وكأنه يشرب من المحبرة.

الأمير: عله أطلق على نفسه الرصاص؟

الخادم: لا يا مولاي، لقد غرس خنجراً ما في أحشائه. وهو ما زال ممسكاً بالقبضة وكأنه مُصِرٌّ على موته. سيدي، ألا تلقي نظرةً على جثمانه قبل الدفن؟

الأمير: لا وقتَ لديّ. أرسلْ لي جثَّته مع البريد غداً.

الخادم: لقد كان صديقاً مخلصاً لك يا مولاي.

الأمير: كان صديقاً مخلصاً ومات، ماذا أفعل له؟

الخادم: (مرتبكاً) لاشيء، كنت أظن أن بإمكانك أن تفعل له شيئاً.

الأمير: إنني أسمع وقع حوافر في الشوارع. لا بد أن قديسنا العظيم قد أتى. أسرعْ أيها اللعين، واقرعْ الأجراس. كن جرساً واقرعْ نفسك أيها الخادم. قل للآخرين أن يطلقوا المدافع وأسراب الحمام. أريد جموعاً لا نهاية لها، تهتفُ لضيفنا العظيم وأطواقُ الزهر في أعناقها. أسرع أسرع. فور أن أطفئَ لفافتي هذه، يجب أ، يشتعل شعبي حماساً وضجةً.

الخادم: سمعاً وطاعة يا مولاي. (ينصرف).

(في الخارج صهيل وقعقعة سيوف ولهاث فرسان متعبين).

أصوات: يحيا الحبُّ والمطر.

الأمير: أيها الحراس، يا عمالقة المطبخ، أبيدوهم كالحشرات، كلوهم مع صُررهم إذا لزم الأمير، ألا تسمعون؟

الحرس: (يهرعون إليه) إننا نسمعُ يا سيدي.

الأمير: تدبروا أمرهم بطريقة ما. هشّوا عليهم بالسياط في الوقت الحاضر.

حارس: ولكن الظلمة كثيفةٌ والريحُ لا تطاق.

الأمير: ولكننا في وضح النهار أيها المجنون.

حارس: أعرفْ يا مولاي، ولكن الظلمة كثيفة وكل شيء غائم وداكن.
الأمير: أضيئوا المصابيح واجلدوها، أشعلوا النيران في أفواههم وأرغموها. (صهيل الجياد يرتفع ووقع الحوافر يشتد في الخارج).
أصوات: لا تفكر كثيراً أيها الأمير الشاب
لا تضربْنا بالسياط
انفخ علينا فقط لتسقطَ جلودنا كدهان الطاولات
أو أرسلْنا في عرباتٍ مطفأةٍ إلى السجون
حتى العصافير هناك تحلّق وأعشاشُها في أعناقها
حتى الرفاق الصغار يمرحون عند الأصيل
وأكفانهم ملفوفةٌ مع ورق الزكام
أو اضربنا، اضربنا
حتى تنكسرَ القصبةُ ويسيلُ الدم على الراحتين
فجلودنا القديمة معبَّأةٌ في جيوبنا
وأهدابنا الرائعةُ أكواخٌ للعصافير.
الأمير: يا عمالقة المطبخ، قولوا لهم ليذهبوا إلى الجحيم! المهم أن يبقى الوطن.
أصوات: نعم، ولكن كسمكةٍ لم يبق منها غير الحسك.
الأمير: (مشيراً بوسطه إلى الفضاء والشوارع) بل بقيت أشياء كثيرة لا تُحصى.
أصوات: نعم، بقي الموت والسلّ عند الغروب
بقيتْ رفاتُ القمر وغضاريف النجوم
بقيَتْ دوراتُ المياه، الأزرار المفضّضة، أنابيب الغسالات
بقيت الأجراسُ وحلقاتُ الأبواب
ولكن لا أحدَ يقرعُ ولا أحد يجيب.
(يدخل إلى مكتب الأمير الضيف العظيم، وهو العازب المصاب بالشذوذ الجنسي الذي كان معتقلاً مع الأمير).
الأمير: لتزهرْ أغصانُ العالم فوراً ولتنفضْ عبيرها على هذه اللحية المباركة لك حبي العظيم أيها القديسُ الرائع. إن جسدي المتواضع والمنهك من حمل أثقال المجد، ليخجل أن ينحني مرَّةً واحدة لأجلك.
القديس: لقد قطعتُ فترة تعبّدي وزهدي من الحياة الدنيا، وجئتُ إليك مهنئاً ومباركاً يا أميرنا العظيم. لا من أجل النكتة اللطيفةِ وقضمِ الفاكهة حول الموائد، ولكن من أجل الفضيلة والشرف يا مولاي.
أصوات: وأخيراً التقتِ الذئابُ وتشابكتْ أنيابها المخضبة بدم الضحايا والغلمان البائسين، هناك خلف الستائر ، فارحلْ يا مطر ولا تعد إلينا.
القديس: ماذا يقولون يا بنيّ؟ إنني لا أفقهُ شيئاً؟
الأمير: إنهم هائجون من الفرح، مجندلون على الأرصفة من نورك المتدفق كالشلال. اجلسْ هنا حيث الصيحاتُ الرائعة تأتيك مع الرياح. حيث رذاذك ينطلق إلى صدرك الخطيئةِ كالرصاص.
أصوات: أيها الأميرُ الشاب التفتْ إلينا
نساؤنا ينتظرْنَ فوق التلال
وأثداؤهن ترنُّ كثمرِ الخشخاشِ في الريح.
القديس: يا للفحشاء.
أصوات: لا نريدُ مطراً أو حُبّاً
ولكن سيوفاً مسلولة لقتلنا أو وداعنا
ولكن قل فقط: وداعاً أيها الرفاقُ القدامى.

القديس: وزعوا عليهم بركاتي.
أصوات: لقد رأينا الخاتم بيده واللآلئ على سيفه
ذلك القديس العظيم
ولم يشهرْهُ لتحيَّتنا، بل إلى صدورنا.
القديس: للمرة العاشرة أقولُ لا أفقهُ شيئاً يا بنيّ. (حجر يحطم النافذة) . يا إله السموات. (يتمتم بالصلاة).
الأمير: (مرتبكاً) مولاي، الجماهيرُ بركانٌ ثائر. ولكنني قادرٌ على إغلاقه كالزجاجة. ولكن ساعة تشاء. لقد فتحوا فجوةً في النافذة، كي نسمعَ سوية، أنا وأنت، أناشيدَ الحبّ والولاء. اصغ يا قديسنا العظيم. ضع راحتك تحت هذه اللحية المباركة واصغ. إن زفير أنوفهم يرغمُ كل قطارات العالم على التراجع. (يطل الأمير من النافذة ويخاطب الجماهير)، آه لقد حطمتم النوافذ المحصّنة يا أحبائي. إن ليل الوطن باردٌ طويل ولسوف تلسعُ الريح الغاضبة ظهرَ قديسنا العظيم.
أصوات: إنك تحطّمُ قلوبنا كالزجاج يا مولاي.
أن تلسعَ الريحُ ظهْرَ قديسنا العظيم أو لا تلسعه
فإنها فائضةٌ عن ظهورنا.
لقد قصَّتْ علينا الجداتُ المسنّات
تحت ضوء القناديل ونيران الأكواح
أن على الظهور الملسوعة
يجلسُ الوطن ويبني عشَّهُ كاليمامة.
إننا نعتذر
والريحُ تعتذر
والسنابلُ المحلّبة تعتذر
ترسل تحياتها إلى المعاطف الثمينة أغطية المدافع.
إننا نسمع ما يُقال وما لا يقال
يخبرنا الجنونُ بذلك
يخبرنا المرضُ في المستنقعات
والسعال الآتي مع الرياح.
إن أعناقنا لن تنحني الآن لدفن موتانا
وإذا لم نصرخْ فقد صرختْ عنا خرافُنا.
الأمير: اقطعوا أعناقهم أيها الحرس، واتركوا صراخهم يسيلُ مع الدم على الكتفين.
أصوات: اقطعها متى تريد. إنها ممراتٌ للحزن، للقبلات المردودةِ على أعقابها.
القزم: (مندفعاً إلى الأمام ومخاطبا الأمير بيأس وانفعال زائدين).
عاملْنا كأحذية، كمسامير، ولكن لا كلا شيء. الشرفُ والحرية يقضيان ذلك. نُصُبهما المحدودبةُ والمكشّرةُ عن أضراسها المعدنية في الساحات تنبئنا بذلك.
الأمير: (صارخاً بالقزم) إنني لا أسمح أبداً. (حجارة تقذف على النوافذ).
القزم: (للأمير) أعرف ماذا ستقول أيها الجبان، يا ذا الرأسين اللعينين. أعرف أنك ستقول بأنك لن تسمح لرجلٍ امتطى عنزةً بعمر والدته في أحلك الساعات التي مرَّ بها الوطن، أن يحدثك عن الشرف والحرية. لنفترض أنني امتطيتُ عنزة هرمة إن لم تمت هذا الشتاء ماتت في الشتاء القادم، ولكنك أنت تمتطي شعباً بكامله. شعباً لن يموت هذا الشتاء أو الشتاء القادم، بل سيظلُّ يتناسل كالذباب، ضارباً عرض الحائط بكل قواعد القذارة والطيران، ليحطّ على أزهار لن نتنشّق رائحتها أبداً، على أفواه لن نسمعَ صراخها أبداً. فالصراخُ راسبٌ في الأحذية وقاع الشرايين. أيها الغريبُ الذي عاملتُهُ كطفلي، يا

من ودّعته ودمعهُ يتحدّرُ على وجهه كالشلال، إن الوطن والحرية ليسا سوطاً وقفازاً وبصاقاً حول الشفتين. إنهما...
الأمير: أطلقوا الرصاص قبل أن يقول ما هما. (القزم يهوي على الأرض مخضباً بدمه}.
الخادم: سيقولها آخرون يا مولاي.

(ستار)

العصفور الأحدب 4

(قاعة محكمة منخفضة السقف جداً ومظلمة جداً. القاضي يجلس خلف طاولة مرتفعة تأخذ كبيراً من ساحة القاعة، وقد تدلت السياط المجدولة من زواياها. حاجب مدجج بالسلاح على يمين القاضي. المتهم يقف بعيداً كالجرذ في الجانب الآخر من القاعة، وخلفه صورة جمجمة وعصفور معلقة على الحائط. هو نفسه صانع الأحذية الذي كان معتقلاً في الصحراء).

القاضي: ليس من أغرب الأمور، بل من أكثرها شناعة واستهتاراً بالمثل والتقاليد، أن يخرجَ صانعُ أحذية قذر، لم يرَ في حياته سحابة أو عصفوراً، من حانوته ويتجولَ حافياً مع زوجته وأطفاله على الزجاج المحطم، مطالباً بالمطر والحب. أحبَّك الجحيم! هيا تقدم.
المتهم: لقد تقدمت ما فيه الكفاية يا سيدي.
القاضي: قلت تقدمْ، ولا تجعلْ الانكسار والمذلة شعارك الخالد منذ الآن.
المتهم: سيدي، يكاد أنفي يلامس حذاءك.
الحاجب: وماذا في الأمر؟ إنه أنظف من كل أنوف العالم، إنه الممثل الشخصي لمولانا الأمير.
المتهم: أعرف ذلك ولكن...
الحاجب: ولكن ماذا؟ (يصفعه على وجهه).
المتهم: لكن لا شيء. أرجوكم ، أو بالأحرى أرجوكما، سأتقدّمُ في الاتجاه الذي تريده العدالة والتاريخ والمسافة التي ترضي سيدي الحاجب. سأقفُ على الطاولة إذا اقتضى الأمير. ولكن مهما كان وضعي قميئاً ومنحطاً، لا أحبُّ أن أخاطب حذاء ما.
الحاجب: إنني لا أطلب منك التقدم كي أهيمَ على صدرك وأنتحب، ولا لكي أتأمل هذه الأسنان الجاحظة والمهيأة كالبنادق لقضم أي شيء، أي شيء حتى هذه العنق (مشيراً إلى عنق القاضي) أليس كذلك؟

المتهم: (بصوت خافت) هذه العنق أو غيرها، عندما أرى طفلي يفكر في كثير من الأحيان بالتهام شقيقته الرضيعةِ وهي نائمة.
الحاجب: نحن هنا في محكمةٍ وليس في مطعم.
المتهم: أعرف ذلك يا سيدي.
القاضي: (بعد أن يلتفت إلى الحاجب) قد تعرف أنك في محكمة وليس في مطعم، ولكنك لن تعرفَ أبداً أ، حياتك كلها مسطَّرة في هذا الملف، وأن عدالتنا لا تجلسُ على السطوح حتى تتكهَّنَ بنتائجها كما يلوح في عينيك. إنها تختفي وتبرزُ ساعة تشاء، ولكن فيما يضمنُ مصلحة الدولة وسلامة المواطنين.
المتهم: أعرف يا سيدي أن ملفّي كبير كبير، وأن عدالتكم، بل وكل عدالة في العالم، تختفي وتبرزُ كمخالب القط ساعة تشاء. ولكن ما أعرفه أيضاً أنه مهما تكن تلك المخالب صلبة وحادة فإنها مقوّسة، ولذلك من المستحيل أ، تسيرَ بشكل مستقيم. ثم لا أظن، من جهة أخرى، أن هذا الشيءَ الموضوع قرب ابريق الماء (مشيراً إلى الملف) هو حياتي، أو حياة مسمار صغير في حانوتي.
القاضي: لقد كتبه رجال مختصّون وعادلون، وأي شك في هاتين النقطتين هو كالشك في حرارة النار وبرودة الصقيع.
المتهم: كما تريد يا سيدي، ولكن...
القاضي: ولكن ماذا؟
الحاجب: (للقاضي) لا تضرخْ كثيراً: لقد ثقبت أذني. (للمتهم) هيا، ولكن ماذا؟
المتهم: لا شيء. ولكنني عندما فكرتُ منذ لحظة بان كل ما قاسيتُهُ وسأقاسيه من مرض وحزن وزواج وولادة، مختصرٌ بهذا الشكل ـ كحاشيةٍ في دفتر بقال ـ شعرتُ بأن الحياة ليست غير محتملة فحسب، بل أن مجرد التفكير بها أكثر قسوةً من سقوط سيف مشهور على رأس القلب. وأن كلّ ما أحسُّ به ولا أحسُّ لا معنى له على الإطلاق. قل ما تريد وسأجيبك كما تريد. إذ الاختصاص والعدالة شيئان هائلان أحني لهما كل ما تبقى من الأشياء المنتصبة في جسدي المتواضع هذا.
الحاجب: وهذا ما تريده بالضبط، لأن هذه المحاكمة ليست وسيلة لنكء الجراح والتدقيق بالنظارات في شؤون الحزن والزواج والولادة، بقدر ما هي طمرٌ خارقٌ وفذٌ لكل هذه الأمور، ولتكون من جهة أخرى ضماداً تاريخياً لكل الجراح التي فُتِحَتْ بالأصابع، في قلب الوطن، باسم الحرية والجنس والمداعبات السرية، وبقية تلك السخافات التي تكرع منها قبضاتكم كما يكرعُ البطّ في الماء.
المتهم: أرجوك أن تقرأ الوقائع.
القاضي: ولمَ العجلة؟ هل نحن في قطار؟
المتهم: لأنني لا أعرفها.
الحاجب: تعرفها أو لا تعرفها، ستحاكم بموجبها. اقرأ أيها القاضي.
القاضي: سأقرأها فوراً يا سيدي.
الحاجب: اقرأ المقدمة فقط، واترك التفاصيل للتاريخ.
القاضي: نعم للتاريخ يا سيدي. (القاضي يزم شفتيه على لفافته، ويتشبث بالملف كأنه يقود سيارة).
منذ ألف عام، أو بعد ألف عام، لا نذكر، في الربيع أو الخريف، لا نذكر، شوهد المتهم بصحبة امرأةٍ حنطية اللون ممزقة الثياب مع عدد من الأطفال، يسيرون الهوينى تحت الغمام الشفاف بطريقة لا تتفق أبداً مع ما يتطلّبُهُ هذا الوطن من صلابةٍ ومجد، ويحمل كلٌّ منهم سنبلة جافة كالخشب، باحترام بالغ وحنان لا يوصف، كما يحمل الكهنة شموعهم في المعابد ، يتعانقون ويهتفون علناً في الشوارع المقفرة وأمام النوافذ المغلقة: "يحيا المطر والحب". كما كان المتهم والمتهمة يقبّلُ واحدهما الآخر علانيةً كلما مرت سحابة من بعيد، دون أي شعور بالخجل والمسؤولية تجاه رغبتنا في المحافظة على سرية النصوص وعظمة الشرائع...

المتهم: (مقاطعاً) سيدي، سيدي، وما الجريمة في أن يحملَ عاشقان ما سنبلتين محطمتين؟ ما الجريمة في ذلك؟ هل تريد منهما أن يحملا مسدسين ليكونا مواطنين شريفين نبيلين.
الحاجب: قاطعني مرة أخرى لأنهي هذه القرار بدمك تابع أيها القاضي.
القاضي: وعندما اقترب أحد رجالنا من المتهم للاستفسار منه عن سرِّ هذا التصرف المرعب، زجره بقسوة وضربتْهُ المرأة العاشقة بسنبلتها ضرباً مبرحاً على فمه ويديه، مما سبب له رضوضاً عميقة وواضحة إلى أقصى الحدود. وبدلاً من أن يلتقطاه عن الأرض ويضمّاه إلى صدرهما بحنان، التقطا سنابلَ القمح المضرجة بدمه وراحا يطيران تحت أوراق الخريف. ولكن عندما استيقظ المجنيُّ عليه لحق فوراً والدمُ ينزف من فمه وأصابعه، وطلب بطاقاتهم الشخصية والتوقيع على مذكراتٍ بالقبض عليهم، فرفضوا بل وسخروا منه وهو في قمة آلامه وانفعالاته، حتى أ، أحدَ الأطفال تناول الورقة منه وهزّها طويلاً بيده ثم جعلكها ووضعها في فمه وهو يضحك واللعابُ يقطر من طوقه الأزرق الجميل، يضحك ويضحك وينظر إلى عينيّ الحارس الغاضبتين القانونيتين. حينذاك لم يجد بدّاً من تأدية واجبه فاطلقَ الرصاص على الطفل. وهنا جُنّ جنون الوالدين، وأخذا يزعقان ويشتمان، وينثران التراب على رأسيهما، بينما الطفلُ القتيل لم يتحرك. بل بقي مكباً على وجهه، وساقاه منفرجتان، وكأ،ه سيمتطي دراجته الصغيرة بعد لحظة.
ولذلك، ونتيجة لهذه الجريمة الخطيرة، قرّرنا أنا وحاجبي، بناء على السلطة الممنوحة لنا من مولانا الأمير، توقيف المدعي عليه في سجن الحرية المركزي، ومنع وقوع المحاكمة عن الخريف لأنه هجر الوطن سحابة إثر سحابة بعد وقوع الحادث. ثم فرض الإقامة الجبرية على الأم في صحراء من الرمال، مع مصادرة كافة أمشاطها وأقراطها وأدوات زينتها، ومنْعِها منعاً باتاً من الحنين إلى زوجها وأطفالها قبل انتهاء التحقيق، ثم تحريم اللعب على الطفلين الباقيين ، وحجز كل منهما في قفصٍ صغير للأرانب في صحراء أخرى، مع مصادرة كافة لعبهما وأطواقهما الجديدة والقديمة، حتى يصدرَ أمرٌ معاكس لذلك.

قرار قطعي غير قابلٍ للنقض أو الطعن...

الحاجب: ولو نهض جميع مؤرخي القانون وأطفال العالم عراةً من قبورهم . (فترة صمت).
المتهم: (يمسح العرق عن وجهه) سيدي، سيدي، لا أعرف فعلاً بأي لغة أهنئك. إن الإنسانية كلها، التاريخ بمجمله، ملخص في بضعة سطور. كان يجب أ، لا تلقى والنوافذ مفتوحة هكذا.
القاضي: إنني لست بحاجة إلى مديح، فرسائل الاعجاب تملأ أدراجي، ولن يتغيَّر موقفي من جريمتك النكراء ولو أمطرتني مدائحك كالسهام.
المتهم: معاذ الله يا سيدي؛ ولكنها المفاجأة، الدهشة العظيمة لرؤية العالم مقذوفاً بكل وميضه الجاهلي ككرة القدم إلى الوراء، ممزقاً شبكة المرمى، مطيحاً بالقسم الأعظم من المتفرجين. إنها القناعة المطلقة بما تقول وما لا تقول، هي التي جعلتْني أحلم الآن بالموت تحت المطر، بقواربَ مهشمة يسيل على صواريها المتأرجحة دمُ العصافير ودم الأطفال. الطعنةُ العميقةُ خارج الجلد هي التي جعلتني أتوجّس وأنهار، غارساً أصابعي حتى نهايتها في هذه الأرض التي انجبتْك صدفةً كالينبوع، كالطوفان. آه، النجدة النجدة. يا طفلي الصغير الحبيب، إنني أختنق. (يتكوم على قدم القاضي وينتحب).
القاضي: قف بعيداً ، هناك. لسنا بحاجة إلى مزيد من الدموع.
الحاجب: عندنا مستودعاتٌ منها. تابع أيها القاضي.
القاضي: نعم يا سيدي.
هناك تماثيل من البرونز لجبناء ولصوص، نُصُبٌ تذكارية لبغايا، أسوار من اللؤلؤ والياسمين لجواسيس يحملون وطنهم في محافظهم، فرسانٌ بعمر الورود دخلوا روما وخرجوا منها وأحشاؤهم معلقةً من

أطراف سيوفهم، في طريقهم إلى المنفى، رجالٌ تافهين دخلوا دورات المياه وخرجوا منها في طريقهم إلى العرش.

ولذلك فنحن لا نريد أن نسبحَ في الأخطاء مرة أخرى. سنمخر عباب العالم وسكين التصفية بين أسناننا، وعلى السفن أن تبحر في أقصى الظلمات وأحلكها على حرائق المسافرين ونيران الحبال وزوارق النجاة، إذا كان الوطنُ محاصراً في جزيرة ما. ن الأطفال والعصافير والفراشات والأحلام الصغيرة، لا يحقّ لها شرف أ، تكون حتى نقطاً أو فواصل في صفحات التاريخ، وعلى حناجر البلابل ذاتها أن تُسْحقَ سحقاً إذا كانت أغنيات المستقبل شؤماً في آذان الريح.

ما هي قيمة طفل بحجم العلبة، بالنسبة لتلك الأساطيل المهشمة، والمضخّات التي تستخلصُ حتى القطرة الأخيرة من فم الجذور وتقشّف الينابيع؟

ما قيمةُ بكاءِ فلاح مجهول، أو قلق عاشقة في مقهى مجهول، بالنسبة لضحكات الأبناء العائدين من النصر؟

ستقول لي: ولكن القسوة يا سيدي ليست في أن ترى شعباً غارقاً بالدم، أو حضارةً موشكةً على السقوط وابطها بمتناول يدك، ولا تفعل شيئاً، بل في أن ترى فراشة صغيرة تتزحلق منذ الظهيرة على الزجاج وتلبطُ في الهواء بفخذيها الرفيعتين دون جدوى، وتراها في منتصف الليل وهي ما زالت تتزحلق على الزجاج وتلبط الهواء بفخذيها الرفيعتين وهي تلهث دون جدوى، ولا تفعل شيئاً. ولكنني سأجيبك على كل ذلك بأنه هراء. الطفولة بذرة الصراخ والريح موطن ومناخ، أما الورودُ والفراشات والأحلام الصغيرة، لا كرمز بل كورود وفراشات وأحلام صغيرة، فهي شبحٌ سري يهدّدنا من أعمق أعماق جذورنا.

هل يتحدث العشاق في المقاهي عن الدمامل المتفسِّخة في المستشفيات، وارتجاف العمال في المجارير؟ أبداً، أنهم يتحدثون عن الورود والأحلام الصغيرة، حيث يرقد صراخ المستقبل ورعبُ الناشئة، عندما تهرمُ المرأة التي أحبّوها وتتجعدُ النهود والأصابع التي داعبوها، ويغطي غبار الحروب جدران المقاهي، وأكوابها المتقابلة على أطراف المناضد.

هيا، ليلتق العبيدُ والفولاذُ في مكان ما، كذئبين كاسرين في غابةٍ مزهرة أو شارع يغمره الوحل، وهذا مسدسي جاهز لرصاصة الخلاص.

هيا. إنني لا أ؛لمُ كيف تتمُّ مثل هذه الأمور، ولكنها تتم وليس من اختصاصي أن أعرف كيف. كلُّ ما يهمني هو أنني ألبس قميصاً نظيفاً كل يوم، وآكل ثلاث وجبات كل يوم، وأضاجع زوجتي ساعة أشاء وأنا أفكر بترقيتي المحددة بتاريخ محدود. ولكن من يجوع؟ من يعرى؟ من يضاجع عنزة؟ هذا ليس من اختصاصي. إن الأشياء أجنحة يضرب بعضها بعضاً وتنزف، تختلط وتهدرُ كالماء، ونحن ندور فوقها كالنواعير. والآن ماذا تريد بعد ذلك كله؟

المتهم: أريد طفلي يا سيدي.

الحاجب: (صارخاً) لقد أغلقنا هذا الموضوع.

المتهم: ولكن هذا لا يجوز يا سيدي، كأنك تغلق بذلك فمي على كتلةٍ من النار. إ، الطفل لم يبرح ذاكرتي.

الحاجب: (ملتفتاً إلى القاضي) سيدي لم أعد أطيق الانتظار. (ملتفتاً إلى المتهم) أوتسمي تلك القطعة البذيئة من اللحم طفلاً؟ لا يزن ثلاث أقاتٍ بعد رضاعته.

المتهم: ولكنه طفلي. ولم أنجبه بمخابرة هاتفية.

القاضي: حسناً، حسناً. ما لون عينيه؟

المتهم: زرقاوان.

الحاجب: بل سوداوان.

المتهم: ولكنهما زرقاوان، كل جيراننا يعرفون أنهما زرقاوان.

القاضي: ولكن ما هو مكتوبٌ أمامي أنهما سوداوان.

المتهم: إذاً سوداوان.
القاضي: لا تغضب، إنه القانون.
الحاجب: لقد بدأ المهرُ يحني عنقه.
القاضي: يشمشم الأرض ويرفس.
الحاجب: يكفي. تابع.
القاضي: ما عمره؟
المتهم: ثلاث سنوات.
القاضي: ولكن ما هو مكتوبٌ أمامي يؤكد أن عمره سنتان.
المتهم: ولكن عمره ثلاث سنوات يا سيدي.
القاضي: قلت سنتين ولن أضيف ساعة واحدة بعد ذلك.
المتهم: ولكنني أعرفُ عمرَ العصافير التي غردت ساعة ولادته.
القاضي: مستحيل. إنه القانون.
المتهم: سيدي. ليجلس القانون في حجري ويلفّ ساقاً على ساق. قد تكون له علاقة بالسياسة ، بالاقتصاد، بالرشاشات، ولكن ما علاقته بطفل صغير، أو بعمره ولون عينيه؟ سيدي، حدثني مرة أخرى عن القانون وسأطيرُ من النافذة. (بصوت خافت وحزين، وهو يكاد يبكي) سيدي أؤكد لك، أؤكد لك يا سيدي ، أنك لم ترَ في حياتك كلها ثوباً صغيراً معلقاً إلى الحائط دون أصابع صغيرة خارج أكمامه، دون حلوى في جيوبه.
القاضي: وهل تريد أ، تعلّقه ميتاً على الحائط؟ لقد قُتِلَ خطأ وانتهى الأمر.
المتهم: سيدي، وما الفرق في أن يموت خطأً أو يموتَ على الآلة الحاسبة؟
الحاجب:هل تريد أن تتحدث عن دوافع الجريمة، وإلا انفجرت بك وبالعالم أجمع؟
المتهم: طبعاً طبعاً، سأتحدث عن دوافع الجريمة. انني أعتذر. لقد كان موضوعُ الطفل جانبياً بالفعل، لأنني قطفتُهُ عن شجرة ، أو كبست زراً على بطن أمه فأنجبته. أنني أعتذرُ مرة أخرى، ولكنني حائر كيف أبدأ، لأن ما حدث شيءٌ فظيع، فظيعٌ جداً، وعليّ أن أتحمل نصف النتائج على الأقل: وإلا ما معنى تحية العلم في الزمهرير، ما معنى كل الجماجم التي دُحرجتْ عبر التاريخ من أجل العدالة والمساواة؟
الحاجب: سيدي، هل تسمح لي بأن أدحرجَه قليلاً أمام هذه المنصة ؟
القاضي: لا، ليس الآن.
الحاجب: (يبكي) أرجوك يا سيدي.
القاضي: ليس الآن، ليس الآن. لقد انتصف الناهر ونحن ما زلنا نقفز كالجرادِ على أبواب الحادث . هيا تكلم أيها المتهم.
المتهم: إذاً لن تسمحَ له بدحرجتي أمام هذه المنصة؟ شكراً يا سيدي، شكراً.
القاضي: هيا، تكلم في صميم الموضوع، في صميمه تماماً.
المتهم: ؟ ولكن طفلي قُتِلَ مع جدته أمام قصر الأمير ودُفِنَ في ذات اللحظة.
الحاجب: (صارخاً ومزمجراً) وهذه الصفحات؟ هل أدفنها في أحد الأدراج؟ يجب أن تحاكم بموجبها.
المتهم: ولكن لا صحة لها.
الحاجب: لا يهمني. لقد دوّنها رجال مختصون يتقاضون راتباً من الدولة، ووضعوا لها تاريخاً وحاشية ورقماً متسلسلاً، وشطبها بعد كل ذلك كشطب وجهي بسكين.
المتهم: إذاً أريد شهودي.
القاضي: من هم شهودك؟
المتهم: حبيبتي وأطفالي وأوراق الخريف. (تهب رياح قوية في تلك اللحظة تقلب الأوراق عن المنضدة، وتضرب الستائر يميناً وشمالاً).

القاضي: وهل يأتي الخريف؟
المتهم: نعم يا سيدي.
القاضي: (فزعاً) هل أنت جاد أيها السيد؟
المتهم: نعم يا سيدي. (الريح تشتد وتعصف بقوة).
القاضي: (بذعر) كيف ومتى ؟ أخبرني بذلك، أرجوك.
المتهم: سيأتي من النافذة، أو المحبرة ، حزيناً يشهر سيفه.
القاضي: يا إلهي!
المتهم: ساخطاً ومقهوراً، وكل حضارات العالم ملصوقة على وجهه كالتواليل. (تظلم السماء فجأة وتكفهر، وتبدو زوابع الغبار من الخارج وكأنها تريد أن تلتهم وتدمر كل شيء.
القاضي: يا إلهي!
المتهم: ستستيقظُ ذات صباح لتجد كل شيء أصفر
وشاحباً عينيك وأوراقك
زوجتك وأطفالك وأسنانك ومدافعك
وكأن كل مرارةٍ في العالم قد انفجرتْ
وسالت على مبعدةِ أمتار من مكانها.
القاضي: (بهلع كبير) أيها الحاجب، نادِ الشهود . نادِ الشهود.
الحاجب: تعالي أيتها المرأة. (المرأة تجيب).
تعالوا أيها الأطفال. (الأطفال يجيبون).
تعال أيها الخريف. (صدى).
تعال أيها الخريف. (صدى).
تعال أيها الخريف. (صدى).
سيدي، الخريف لا يجيب.
القاضي: (باطمئنان ممزوج بالشعر) أسمعت؟ أسمعت؟ انه لن يأتي.
المتهم: إنه يتحفز يا سيدي.
(تدخل زوجة المتهم، وهي امرأة جميلة حنطية اللون ممزقة الثياب وقد تدلى نصف ثدييها إلى الخارج، فزعة ملهوفة، يجرها حارسان عملاقان ويطرحانها متهالكة وسط المحكمة، وبجانبها حارس جريح)

القاضي: (مغطياً وجهه بيديه) ما هذا ؟ هل أنتِ على شاطئ البحر؟
الزوجة: (تحاول ستر عريها) إنني ... إنني ...
المتهم: لا ترتبكي يا يمامتي. قفي كما أنت.
القاضي: لا يجوز. لا يجوز.
المتهم: (صارخاً) ولماذا لا يجوز؟ هل تتهيَّجُ العدالة؟
الجريح: إنها تبدو كقديسة بالنسبة لما كانت عليه عندما وقع الحادث يا سيدي.
المتهم: يا للشهامة. إنني واثق من أ،ه لا يعرف الفرق بين جبل عرفات وجبل طارق.
الزوجة: بل أنا واثق من أنه لا يعرف كم ثدياً لأمه.
الجريح: سيدي، هذا نموذج بسيط لما قاسيته منهما عندما وقع الحادث.
الزوجة: (للقاضي) ليتك كنت هناك يا سيدي.
المتهم: أي بمعنى أنك لن تكون في أي مكان.
الجريح: إنهما يكذبان. ليتني أستطيع أن أريك آثار لكماتهما عندما وقع الحادث. لقد حطّما كبريائي بفأس، ولطخا معطفي الجديد هذا بلُطخٍ لن تزول إلا بدمهما.

الزوجة: ودم الطفلين الباقيين، أليس كذلك؟ (تبكي).
الجريح: هذا أتركه لعدالة المحكمة.
المتهم: يا يمامتي الغالية، إنك تحتضرين.
الحاجب: لا احتضار أثناء المحاكمة. بل الاحتضار حتى أعود. (يخرج).
الزوجة: (للقاضي) سيدي، إنه يطالب بدمنا لازالة تلك اللُّطخ عن وشاحه الجميل هذا، ولكنني أؤكد له أنه ما من مصبغة بشرية في العالم يمكنها أن تزيل ما على وشاحه الجميل من أدران. ليس دمنا فحسب، بل دماء الملايين. أما دم الطفلين الصغيرين، بل دم كل أطفال العالم، فلن يكفي حتى الياقة أو الأزرار. (توجه كلامها للجريح) إنني أقطفُ لك نهدي بأسناني، وأقدمه لك هدية وتعويضاً عن ذلل الحادث الرهيب. ((متهكمة) عندما وقع الحادث... عندما وقع الحادث ... منذ أول الجلسة وأنت تقول وتتلعثم: عندما وقع الحادث... عندما وقع الحادث... (صارخة) هيا انطق هذه الجوهرة.
القاضي: (صارخاً أيضاً) أن ما تقوله صحيح، فأنا شخصياً أصبح عندي شبقٌ قضائي لمعرفة هذا الحادث.
الجريح: لقد شتماني وضرباني بسنبلة.
القاضي: ماذا قلت؟ شتماك وضرباك بسنبلة؟
الجريح: (يبكي) بل بسنبلتين يا سيدي.
القاضي: وأنت بوشاحك الجميل هذا؟
الجريح: وهل كنت أقوم بواجبي عارياً يا سيدي؟
القاضي: هيا، تكلم في الموضوع مباشرة. يا للعار!
الجريح: (وهو يمسح دموعه بكمه) سيدي، إن الدنيا كلها غائمة في رأسي، بل كلُّ شيء غائمٌ ولعين. كنت أقوم بواجبي في شارع مقفر، عندما سمعتهما يهتفان للمطر والحب. وكل ما فعلته عند ذلك أنني زمجرتُ قليلاً وطلبتُ بطاقاتهم الشخصية، فرفضا. أما الطفل فقد لي طابته. سيدي أن ما حدث شيءٌ لا يحتمل، وغوصي في الموضوع أكثر من ذلك يعني دماري دماراً كاملاً كفنان وانسان متصوف مجهول. أطلقتُ الرصاص على الطفل دون أن أسيءَ بكلمة واحدة إلى والديه. فهشماني على أثر ذلك بالسنابل. (يبكي ويتابع كلامه) سيدي، لي رجاءٌ واحد فقط، لقد ذُكر في إفادتي الآولى أن الحادث وقع في الخريف. أنني أريده أن يكون في الربيع.
الزوجة: سيدي، أنه ليس كاذباً فحسب بل هو عالم ذري في هذا الميدان.
الجريح: (يبكي) سيدي، أنظر ، يريدان أن يضرباني. إنني لن أقبل هذه الإهانات تحت وقس المحكمة.
القاضي: لا تبتئس يا بني، فكرامتك ستُرَدُّ إليك وكأنها محفوظة في مصرف.
المتهم: (صارخاً بجنون) سيدي، لم أعد أطيق هذه المهزلة، بل لم أعد أطيقُ واحداً من عشرة منها. أريد أطفالي شهوداً، الآن ، وقبل أن أزدرد لعابي.
القاضي: ليدخل الأطفال. (يدخل حارس مدجج بالسلاح، يحمل قفصين في كل منهما طفل، ويضعهما عند قدمي القاضي.)
الزوجة: رباه انظر. (مخاطبة لا أحد) انظروا ، لم يلتفتا إليّ. إنهما بم يتعرفا عليّ.
المتهم: قد يظنانك القاضي نفسه، أو قد يظنان القاضي أبريقاً أو منشفة.
الزوجة: يا إلهي! انظر، لقد شابت أصداغهُما الصغيرة وتجعَّدَ أنفاهما كالكهول.
القاضي: سكوت. (يوجه حديثه للطفلين وهما داخل الأقفاص) أأنتما شاهدان أم متهمان؟
الطفلان: أخرجْنا من أقفاصنا لنقول لك.
القاضي: ولماذا ؟ حتى تجعلا هذه المحكمة كغرفة استقبال بعد ذهاب الضيوف؟ أخرجهما أيها الحارس. (يخرج الطفلان من قفصيهما، وقد غطاهما الشيب وكستهما الأقذار).
الزوجة: رباه، لقد شابا كأسرى العصور الحجرية. انظر. برعمان صغيران يغطيهما الشيب. (تنتحب).

المتهم: يا طفليّ القذرين، إنكما أشبه بقطعتين قذرتين من الثلج الشاحب، بل كآثار كعبين صغيرين على طريق يغطيه الثلج الشاحب.
القاضي: (للطفلين) والآن أأنتما شاهدان أم متهمان؟
الطفلين: لا نعرف يا سيدي.
القاضي: وماذا تعرفان إذاً؟ هيا تكلما.
الطفلان: لا نستطيع يا سيدي. شفاهُنا يابسةٌ كالتنك.
القاضي: وماذا أفعل لكما؟
الطفلان : قطرة حليبٍ لكل منا، بل نصف قطرة ونغرِّد لك كالطيور.
القاضي: أريد اعترافاً لا تغريداً. (يتناول الحارس ابريق الماء عن الطاولة بصوت مسموع).
المتهم: يا الهي! لقد طارتْ الرحمة كقبعة في الريح.
الطفل: أيها الحاجب. سأعطيك دميتي ولكن أعطني قطرة ماء.
الطفلة: سأعطيك شريطتي، ومشطي الصغير، وكلن أعطني قطرة ماء.
الزوجة: لقد انتهى العالم.
الجريح: أن هذا الطفل يتكلم وكأنه...
الطفل: لا لست ليبرالياً، يا سيدي، ولكنهم يقدمون لنا الطعام والماء بأغطية الزجاجات.
الطفلة: (تخرج عدداً من الأغطية من جيوبها) لقد جمعت منها كثيراً. سألعبُ بها في الزقاق عندما يطلق سراحي. (تبكي).
المتهم: يا طفلتي الصغيرة، إذا كان مشطك الصغير هذا يؤثر في شعر الماعز، فلن يؤثر في مثل هؤلاء. إنك لست كفراشة بل كنصف فراشة، لم تنمي اصبعاً واحدةً منذ أجيال.
الطفلة: لا أريد أن أنمو يا أبي.
المتهم: ولماذا يا ابنتي؟
الطفلة: لقد رأيت أكثر مما يحتمل من الحياة. إنني أرتجف يا أبي. أعطني شيئاً لأتدثَّرَ به.
المتهم: وبماذا أدثرك يا طفلتي، وليس لديّ حتى نصف محرمة؟
الطفلة: ولا تستطيع أن تطعمني؟
المتهم: لا أستطيع يا ابنتي.
الطفل: إذاً سأهجرك يا أبي.
المتهم: كما تشائين يا ابنتي.
القاشي: أبعدوا هذه الطفلة، وليتقدم الطفل. (الطفل يتقدم ببطء واعياء).
المتهم: يا طفلي الصغير الحبيب.
الطفل: أرجوك يا أبي، أريد أ، أنهي محاكمتي بهدوء.
المتهم: آه يا طفلي الصغير البائس.
الطفل: لا شيء نتحدث عنه يا أبي.
المتهم: ولماذا يا بني؟ والحياة أمامك تصطخبُ كالأمواج.
الطفل: سأنتحر هذه الليلة.
الطفلة: نعم، لقد عضَّ شريانه ليلة أمس، ولكنه بكى من الألم وملأ قفصه صراخاً.
القاضي: لا تصغ إليه أيها الطفل. أتسمع؟ أنا القاضي وليس هو.
الطفل: ولكنه أبي.
القاضي: إنني أرفع لك قبعتي احتراماً وتبجيلاً، وماذ ا في الأمر؟
الطفل: لا شيء. إنني أعتذر.
الزوجة: يا إلهي! إنه لا ينظر إليّ. إنه كوحش صغير في الصحراء.

القاضي: (للطفل) هل أنت مريض؟
الطفل: لا.
القاضي: هل أنت معافى؟
الطفل: لا.
القاضي: هل أنت حزين؟
الطفل: لا.
القاضي: هل أنت سعيد؟
الطفل: لا.
القاضي: هل تكره أباك وأمك؟
الطفل: لا.
القاضي: هل تحبهما؟
الطفل: لا.
القاضي: هل تريد أن تخرج وتلهو مع رفاقك الصغار في الشارع؟
الطفل: (يندفع صارخاً ومنتحباً ويقبل قدمي القاضي) نعم يا سيدي. إنني أقبِّلُ قدميك، ولكن لا تعدْني إليه. سأعطيك طابتي وطوقي هذا، ولكن لا تعدني إليه. (يظل الطفل مكباً على قدمي القاضي).
القاضي: انهض وأقسم على الكتاب المقدس أنك تقول الحق.
الطفل: (ينهض ويضع يده على المحبرة).
القاضي: (صارخاً) يا لك من أبله وماكر. لقد أدركت نواياك. هذه محبرة وليست كتاباً مقدساً. ألا تعرفها؟
المتهم: أرجوك، لا تزجره يا سيدي: إنه ليس إلا طفلاً صغيراً ولا يعرف شيئاً؛ قضى كل حياته في المعتقلات. حتى لو سألته عن ثدي أمه هذا لن يعرفه، سيظنُّه دُمَّلة أو نتوءاً من اللحم.
الحاجب: (يدخل فجأة ويخاطب القاضي وهو يقضم تفاحة حمراء بأسنانه) اقرأ قرار المحكمة أيها القاضي.
القاضي: (بعد أن يأخذ وضعية القاضي) باسم الشعب:
نظراً للافادات والوقائع الدامغة في الجريمة النكراء موضوع الدعوى، وبعد الاستماع إلى كافة الشهود والمحامين، وتمحيصِ مختلف الاضبارات والاستمارات، بناء على اعتراف المتهمين جميعاً اعترافاتٍ صريحة واضحة لا لبس فيها ولا ابهام، قررت المحكمة اعدام المتهمين شنقاً تحت شجرة خريف جرداء في ليلة عاصفة. أما الطفلان الصغيران، فسيعدمان نظراً لصغر سنهما ببندقيتين صغيرتين.
الحاجب: ليؤخذْ المتهمان الرئيسيان، ولتدخل فرقة الرمي الوطنية.
(تقفر القاعة من الجميع، ويبقى الطفلان كدمعتين صغيرتين في صحراء العالم. ينظر واحدهما للآخر، وهما متشابكا الأيدي. ثم تظلم القاعة فجأة، وتهب رياح قوية تحطم زجاج النوافذ وتلقي بشظاياها على الصخور، بينما تتأرجح الستائر وتتألق بألوان نارية داكنة. ويسود القاعة جو لا يحتمل من الرعب والغبار والأعشاب اليابسة).
(تدخل فرقة الرمي وتشكل نصف دائرة حول الطفلين الفزعين، بعد أن يحزما جيداً إلى خشبتين متجاورتين، وقد اخفى كل منهما طابته خلف ظهره، وهو ينظر برعب حقيقي إلى فوهات البنادق وفجأة تدوي طلقات الرصاص، ويبقى الطفلان مضرجين بالدم، وقد تدلى رأس كل منهما على صدره. وتدحرجت طابته بهدوء على الأرض. ثم تهب ريح قوية أخرى محملة بالغبار والأشواك وأوراق الصحف، يرفرف خلالها عصفوران غريبان ثم يحط كل منهما على خشبة.)
الريح: في الشرق أو في الغرب
في زمن المصاعد الجامحه

أو الخيول المكبَّةِ على قوائمها
في الليل أو في النهار
قبل تناولِ الافطار وبعد تناول المسكّنات
بين عظامِ القراصنة
والعيون المفقوءة بين الرمال
ستنبتُ أزهارٌ صغيرةٌ كأسنان الأطفال
أزهارٌ مقسومةُ الظهر
تحمل فوق عبيرها المتواري
حضاراتٍ بائسةً وقتلةً ممزقين بالأظافر
كما تحملُ الطابةُ فوق الماء
ماءٌ مشرَّدٌ وحزين
سنحفر مصبّه في أعمق أعماق الأرض
لا بالسباباتِ ورؤوس المظلات
ولكن بالأهداب وأطراف السلاسل..
عصفور: إذا نبتتْ زهور ما...
العصفور الآخر: قد لا تنبتُ زهور ما.

(ستار)